الجزء الأول المجلد الثالث والثلاثون

مجلة المجمع العلمي العراقي

ربيع الأول ١٤٠٢ هـ
كانون الثاني ١٩٨٢ م

البطشة الكبرى

بين ابن زيدون وابن عمار

القسم الثاني (*)

الأستاذ عبدالرحمن الفاسيّ
(عضو المجمع المؤازر)

يتصدر الأستاذ علي عبدالعظيم ، برسالته الجامعة : (ابن زيدون حياته وأدبه) : جمهرةَ الباحثين الذين نصوا — أمام سكوت القُدامى على أن أبا الوليد بن زيدون كان وراء الإطاحة بدولة الجهاورة (٤٢٣ - ٤٦٣ هـ) التي أطلق عليها شيخ مؤرخي الأندلس أبو مروان بن حيان : « البطشة الكبرى » .

وقد رجح الأستاذ علي عبدالعظيم القول بذلك ، مستنداً الى جملة نصوص ، والى اعتبارات وملابسات ، مما يحف بالأحداث وبالرجال .

ويتضح من كلّ ما جاء في المقام أن ترجيحه يقوم على رؤيته التي يتعامل على وَفْقِها مع النصوص ، وعلى مقتضاها يبسط الاعتبارات والملابسات التي يستنتج منها أن ابن زيدون كان وراء تلك المأساة ، من البداية الى النهاية .

وهكذا يرتكز على هذه المنطلقات .

(*) نشر القسم الأول في ج ٣ — ٤ من المجلد ٣٢ ، من المجلة .

المنطلق الأول : ان ابن زيدون كان يملك تأثيراً [1] على المعتضد عباد ، وتمكناً من قلبه [2] .

المنطلق الثاني : أن نقمة ابن زيدون على بني جَهْوَر هي التي دفعته الى الانتقام بالتحريض عليهم .

المنطلق الثالث : أن المعتمد ابن عباد قد أقر ابن زيدون في منصبه الذي كان له على عهد والده المعتضد ؛ فكان له بحكم الوزارة المثناة التي أقرّت له ،التأثيرُ نفسه ؛ والتوجيه الذي كان له على عهد المعتضد .

ومن المنتظر حقاً والمفهوم في بادئ الأمر ، أن يكون الوزير المعروف بحظوته[3] أول من يثب نحوه النظر ،ويتوجه اليه الانتباه ، عند البحث عن هذا الذي كان من رجال الدولة وراء حدث « قُرطبة » . ومن الواضح أيضاً أن القول بأن ابن زيدون قد كان له تأثير في المعتضد ، على ذلك الوجه الذي يعرضه الأستاذ عاينا في كلامه المنقول سابقاً بحروفه ، لن يكون إلا مستوحىً من دلالة نص ابن خاقان في بادئ الأمر ، وعنه صدر في محاولته عن طريق الاستنتاج والتقدير — عرض مظاهر وأسباب تأثير ابن زيدون في المعتضد ؛ حسبما يعلم من مواضع الاستشهاد التي سنرى أنه رجع فيها الى هذا النص نفسه ، ووجه الاستيحاء منه أن مِنْ شأن مَنْ أظهر صونة المعتضد — كما يقول ابن خاقان « ودبر دولته » ، «وأغراه بالأعداء» ، و« زيّن له الإيقاع بالوزراء » ، الى آخر تلك المعطوفات ، أن يكون له ذلك التأثير في المعتضد ولامراء ، غير أنه من الملاحظ أن الأستاذ يستبعد إفادات نص ابن خاقان المهولة : كالإغراء بالوزراء ؛ وتزيين الإيقاع بالعمال ، مثلما يستبعد كل ما هو من هذا القبيل ممّا رماه به خصومه ؛ كالتحريض على الفتك بالخاصة

(١) رسالة الأستاذ علي عبدالعظيم (ابن زيدون حياته وادبه) ، ص ٢٨٥ .
(٢) الصفحة ٢٦٤ .
(٣) انظر كتاب الأستاذ علي عبدالعظيم عند النبذة الواردة بعنوان : (مناصب خطيرة) ٢٥٩ — ٢٦٥ .

والأبناء ؛ وقبض أرواح الندماء ، وكل ما « يقوم به الأمير من بطش وانتقام » على حد تعبيره [٤] ، فهو يرى أن هذه الكبائر والموبقات إنما هي من مغالاة الخصوم [٥] الذين (ادعوا أن المعتضد ما كان ليقوم على أمر إلا بعد استشارة مشيره الأكبر ووزيره الأول ابن زيدون) . وبأثر كلامه هذا ، يورد مباشرة نصّ ابن خاقان مثالاً للمغالاة . وهذا يساير الروح السائدة في كتابه حيث نزع الى تفنيد جميع ما قرف به الخصوم ابن زيدون من كبائر التحريض على الفتك والبطش ؛ كما اتجه الى الدفاع عنه[٦] تجاه كل ما اعتقده المعلقون على طبعه الحادّ ، وما سجلوه على سيرته من مآخذ ، وأعني أنه يدرأ عن ابن زيدون كل ما يتسم بصبغة التحريض والإغراء .

وقد كان المنتظر منه ، وهو الذي برأ ساحة ابن زيدون مما اتّهمه به خصومه من تحريض وسواه، أن يبرئه أيضاً مما هو من قبيل التحريض بالبطش والانتقام[٧] والفتك [٨] ، بل والسلب والنهب ، — وكلها سخرت عند فتح قرطبة — (البطشة الكبرى) . ولكنه وقف من هذه موقفاً غير منتظر ولا مفهوم ، أعني أنه نسب اليه باجتراح البطشة الكبرى ما قال فيه — حسبما عرفنا من قبل — : انه مثال للمغالاة في نص ابن خاقان ، وإنه أيضاً من ادعاء الخصوم [٩] ، وأدرج دحضه لبهتان أولئك الخصوم تحت عنوان (وشايات دنيئة) ؛ ولا يَسَعُ الباحث إلا أن يعزز هذا ، ولا يلقي بالاً الى كلمة سائرة رواها ابن سعيد في «المُغرب»

(٤) انظر ص ٢٦٥ تحت عنوان : (سحابات عارضة) ، وص ٢٨٠ تحت عنوان : (وشايات دنيئة) .

(٥) راجع ص ٤٤ ، عند ترجمة المعتضد ، وانظر تحت عنوان : (وشايات دنيئة) ص ٢٨٠ ، تحت عنوان : (مناصب خطيرة) و ص ٢٦٤ ، وتحت عنوان : (سحابات عارضة) ص ٢٦٥ .

(٦) انظر ص ٢٩٥ .

(٧) انظر ص ٢٦٥ من كتاب الأستاذ في «ابن زيدون» .

(٨) انظر ص ٢٨٠ .

(٩) انظر ذلك في صفحات رسالته المشار اليها في التعليق (٥) .

حين قال : إن « ابن زيدون لا يؤمَن شره ولا يرجى خيره » ، لأنها ليست إلا صدًى لما كان يروّجه خصومه في بداية عهد المعتمد ، حين لاحظوا بوادر رعاية سابقته ، وأنه سيحتل في دولة الولد المعتمد مركزه نفسه في عهد الوالد المعتضد . وأهم ما يدفع به الباحث تقريف أولئك الخصوم ، القصيدة التي دسوها في يد المعتمد صدر دولته [10] ؛ فليس فيها زائد على ما كان قرف به الخصوم ابن زيدون لدى بني جهور ، ولا تخرج وشايتهم عن أنه يبطن خلاف ما يظهر لأولياء نعمته ، وبذلك خلت القصيدة من أيّ عنصر من شأنه أن يغزو عواطف المعتمد ؛ كتذكيره مثلاً بجريرة التحريض على خنق المعتضد ولده اسماعيل بيد نفسه ، أو بزلّة محاولة مثلها بالنسبة الى أبي القاسم المعتمد نفسه ؛ وأعني أن أبا الوليد بن زيدون لو كان معروفاً يومئذ بذلك الإغراء والتحريض ؛ ويدخل فيه ما يتعلق بالمعتمد ، لخرجت القصيدة المدسوسة في يد المعتمد عن مَهْيَع تكرار التأليب الى طريقة إثارة غريزة الإنسان في المعتمد ؛ وذلك بالتركيز على جرائم القتل بالتصريح أو التلويح . وظاهرة خلوّ القصيدة من عناصر الإثارة من هذا القبيل ، تتيح القول بأن كبائر الإيقاع بالآل والخاصة والمنافسين التي رآها الرواة من تحريضه وإغرائه ، إنّما هي في الواقع صدى لمقولة ابن خاقان ، واجتهاد من الرواة محمول عليها في عصره أو بعد حين .

وهكذا فبالمستفاد من هذه القصيدة نؤكد ما أخذ به الأستاذ علي عبدالعظيم من أن ما ينسب الى ابن زيدون من تحريض إنما هو مثال للمغالاة في نصّ ابن خاقان ؛ وأنه من ادّعاء الخصوم . ولكننا نلاحظ أن الأستاذ يقول في ابن زيدون ، وكأنه ينطق بلسان هؤلاء الخصوم الذين قال إنهم أدعياء مغالون[11]:

(١٠) المعروف ان المعتمد بن عباد ضرب في نحر اولئك الخصوم بقصيدة رداً على القصيدة التي دسوها في يده وعلى نفس الروي والميزان ، فكانت منه نغمة البراءة رداً على نغمة الوشاية ، ولابي الوليد بن زيدون قصيدة ميمية في المقام وعلى نفس الروي والميزان أيضاً ، وقد أورد الفتح في « القلائد » القصائد الثلاث في ترجمة المعتمد .

(١١) انظر ص ٢٧٥ ـ ٢٨٥ .

« إنه كان يذكي في المعتضد شهوة فتحها (أي قرطبة) ، ويسهّل عليه أمر اقتحامها ، ويدبّر له وسائل نيلها » ، كما يؤكد أيضاً أنه « يرجح » أنه هو الذي (حرّض) ابنه اسماعيل على مهاجمتها . فلما خاب أمله فيه ، عاود تذكير المعتضد بها ؛ فشرع يدبر لها الوسائل ، ويحوك الدسائس ، ويقول بعبارة أخرى على سبيل الترجيح : إن الوزير كان « يذكي نهم ابن عباد الى التهام قرطبة حيناً بعد حين » ، وأنه « اشترك مع المعتضد في تحريض عبدالملك بن جهور على الفتك بابن السقاء » . والغريب أن الاستاذ نفسه يسمّي [١٢] هذه المداخلة دسيسة قبل صفحة واحدة من هذه العبارات .

ونتساءل أيضاً : أيُّ جامع بين قول الأستاذ في (ص ٢٨٦) : « ومن الطبيعي أن لا يقدم المعتضد وابنه المعتمد على أمر خطير كفتح قرطبة إلا بتدبير من ابن زيدون » ، وبين قوله : في (ص ٢٨٠) وهو يتحدث عن مغالاة خصومه ، إنهم : « ادّعوا أن المعتضد ما كان ليقدم على أمر إلا بعد استشارة مشيره الأكبر ووزيره الأول ابن زيدون » ؟

وهكذا ينفي الأستاذ عبدالعظيم الشيْ ويثبته في حق شخص واحد ، ومن ثَمَّ نراه لا يني عن تعداد الوسائل والدوافع التي تشير الى تأثير ابن زيدون في المعتضد ؛ وتمكنه من قلبه ؛ حتى أتاحت له أن يكمن وراء قضية قرطبة نفسها . فهو يتشبّث مرة أخرى بنص ابن خاقان الذي رفض من قبل أكثر إفاداته ؛ لأنها عنده من قبيل المغالاة ، وبذلك لم يَصْفُ للأستاذ من ذلك النص غير الفقرتين اللتين جاء فيهما : « وقد كان ابن زيدون وزير أبيه المعتضد الذي أظهر صولته ودبر دولته . . » . ومن هاتين الفقرتين استوحى أحد مظاهر تأثير ابن زيدون في المعتضد (*) ، فقال : « إن ابن زيدون ما كاد يتصل بالمعتضد حتى توالت فتوحاته واتسعت رقعة مملكته » . ويبدو من إفاداته هذه أنه حمّل هاتين الفقرتين أكثر

(١٢) انظر ص ٢٨٤ .

(*) ص ٢٦١ ، ٢٦٤ .

مما تحملان ، وألبسهما فَضْفاضاً فوق فضفاض زخارف أسجاع ابن خاقان ، فبدا ابن زيدون من خلالهما وكأنه المعنيّ بقول الشاعر : « كالهر يحكي انتفاخاً صولة الأسد » . فأين يا ترى ابن زيدون من فتوح المعتضد عباد أسد الجزيرة ، ومن مخطط أسلافه المعروف في الامتداد والامتلاك ؟ وأين كان من عزمات الأسرة العبادية في ضم قرطبة منذ أزمان ؟ ويكفي أن نقول إن ابن زيدون ما استقر رأيه بعد ضرب الأخماس بالأسداس ، وما حط رحاله للمرة الأخيرة في كَنَف بلاط اشبيلية وجذبته اليه أضواء خلوانه النيرات ، الا في عام ٤٤١هـ ، وقد كان المعتضد عباد عندها قد سار بعد والده شوطاً بعيداً في تنفيذ مخطط فتوحهم تُجاهَ ناحية الغرب ، وتحركهم فيها بين إقبال وإدبار ، وهزيمة وانتصار . وليس معهوداً ولا منتظراً من مثل المعتضد عباد أن يلقي بمقاليد الأمور وبزمام المملكة وأمر الفتوح في السنة نفسها التي قدم فيها عليه ابن زيدون ، أو في السنة التي بعدها ، حتى لكأن حركة دواليب الدولة كانت معقودة بوصول هذا الوزير العاشق الذي خلف شطراً من قلبه معموداً في قرطبة ، وشطراً آخرَ منه ما زال بمنازل أنسه في مالقة [١٣] ، والمفهوم من إلحاح ابن زيدون في شعره وإلحافه بالوساطة [١٤] للحصول على منصب الكاتب الذي شغر في بلاط المعتضد عبّاد بصرف أبي محمد بن عبد البر عنه ، أنه لم يظفر بتثنية الوزارة ، الا بعد أمد طويل ، وجهد جهيد . وتثنية الوزارة نفسها لا تتيح له أكثر من مجرد التصرف كما هو معروف عن أكثر ذوي الوزارتين في تلك العهود ، فكيف بتدبير أمر الفتوح ، وذلك ما لا يسمح بالقول : « إنه ما كاد يتصل بالمعتضد حتى توالت فتوحاته . . . » ؟ ثم لو أن كل وزير واكب فتوحات ملك فاتح ، وعزيت الى عبقريته فتوح ملكه ومشاريعُه في امتداد رقعته ، لتغير وجه كتابة التاريخ ، وانقلب مضمون سير الفاتحين رأساً على عقب . ثم إن التأثير في شخصية المعتضد الى حد توجيهه

(١٣) انظر تسة سفارته لدى صاحب «مالقة» في الذخيرة لابن بسام، القسم ١ ، ص ٢٩١ .

(١٤) «الذخيرة» القسم ١ ، ج١/٢٩٠ .

في فتوحه التي تُعَدُّ طابَعَ شخصيته ، وتكون أكبر مقوماته ، لَمِمّا يُعَدُّ بعيدَ المنال ، بعيداً عن الانطباع حتى في الخيال . ولو صح أن ابن زيدون كانت له يد أو مطلقُ تأثير على المعتضد في فتوحاته واتساع رقعة مملكته لتغيرت معالم ترجمته في كتب التراجم ، ولتعادلت السياسة والأدب في ميزان مقوماته . وواقع الأمر في هذا أن الباحث اذا استثنى خبر سفارات ابن زيدون في قرطبة وفي اشبيلية ، فلا يمدّنا شعره — وديوانه أو المختار منه بين أيدينا اليوم — ولا تفيدنا أخباره عند مترجميه ، ولا يشعرنا أيضاً تاريخ عصره بما يقيم لاسمه ذكراً وسط هدير حركات المعتضد في شرقيّ الجزيرة وجنوبيّها وغربيّها ؛ وكأن قريحته أيضاً قد ظلت جامدة أمام هول تلك الأحداث التي دهمت بها حركة الاسترداد ممالك الجزيرة في الغرب ؛ ثم في الشرق ؛ فغيرت معالم الديار ، وقايت نفوس الرؤساء من حال الى حال ، وكبست على أسد الجزيرة عباد عرينه ، وأسكتت دوي وحي الدهاء الذي كان ينزل عليه في « العريسة » ، حتى لكأن ابن زيدون الشاعر (والمستشار الأول — كما يقال) كان بمعزل عن دنياه ، أو أنّ حواسه كلها — ولا سيّما حاسة التأثير في المعتضد ؛ لو ثبت له هذا التأثير — قد غرقت كلها في جحيم هواه .

وبعد هذا ، فما زلنا مع الفتح بن خاقان ، ومع محاولة أخرى من الأستاذ علي عبدالعظيم لإثبات تأثير ابن زيدون في المعتضد ، وذلك عن طريق المناصب الخطيرة التي وليها في بلاطه ، فأقامته مقرباً اليه ، قريباً منه .

والاستاذ يتخذ من إلحاح المعتضد عبّاد في جذبه اليه ، والاختصاص به ، ثم من الحظوة التي نالها منذ قدومه عليه ، والإكرام الذي نعم به في ظله ، مدخلاً للملاءمة والمجانسة بين تقريبه اليه كشاعر وكاتب ، صاحب مواهب فكرية ، وسليل أُسرة سَرِيّة ، وسمات جمالية ؛ وبين تقريبه اليه في صورة وزير ، فيفسح للوزير في تدبير دولة المعتضد بقدر ما فسح للشاعر النديم في صدره وفي خلواته

ومجالس أنسه ؛ وإنهما لينسجمان حقاً في مشارب وأهواء ، فتجمع بينهما مطارحات الأشعار ، وبنات الأفكار ، وتوشج بينهما مجالس الأسمار ، ومعاطاة كؤوس العقار ؛ فكان حقيقاً بأن يخفّ على قلبه ؛ ويتمكّن منه ، حتى يصبح من خواصه ويجالسه في خلواته ، ويهاديه ، ويكرمه بدخول حمامه ، والتّنزّه مع حريمه في جِنانه ، ولكن الواقع أيضاً أنه يفرق بينهما ما يحول بين التأثر والتأثير في غير ذلك السبيل ، وقد قرف ابن زيدون بأنه أنشد هذين البيتين ساعة بلغه موت المعتضد :

لقـد سرّنـا أنّ النّعِيّ موكّـل
بطاغيةٍ قـد حُمّ منـه حِمـامُ
تجانف صوب الغيث عن ذلك الصّدَى
ومَرّ عليه البرقُ وَهْوَ جَهـامُ

ولا ننسى أيضاً أن ابن زيدون قد أجاب حين سُئل عن سر انفراده بالسلامة من ذلك الذي لم يسلم من بطشه الخاصة ، ولا أمِنَ مِنْ بَدَواته العامة ، فقال : « كنت كمن يمسك بأذُنَي الأسد ، يتقي سطوته : تركه أم أمسكه » !

ولقد سلم حقاً بواسطة هذا التّأنّي ، وهذا التّأنّي ، حتى ليقال إنه نوع من التلاقي والانسجام . ولكن التكالف واضح ، والافتعال مرموق ، ولن يخفى على ألمعية الرجال من أمثال المعتضد وابن زيدون . ولنتذكر أن صاحب هذا البلاط هو الّذي قال :

قسّمْتُ زماني بينَ كدٍّ وراحـة
فللرأيِ أسحارٌ ، وللطّيب آصـالُ
فأمسي على اللذات واللهـو عـاكفاً
وأُضْحِي بساحات الرياسة أختالُ

وأحسب أن الذي قسم زمانه بين مجالس اللذات ولهو الليل ، وبين ساحات الرياسة بالنهار ، حقيق بأن يقسم رجاله أيضاً الى طائفتين ، يتعاقبان في الضحى

والمساء ، والأسحار والآصال ، ويقسم بينهما في التقريب بحسب الصلاحيات والاستعدادات .

وعلى كل حال ، فالوضعية كما يراها الأستاذ علي عبدالعظيم ، وبحسب ما يوحي به صنيعه ، تقدم إلينا الشاعر النديم مقرباً في ساحة الرياسة ، على وَفْق تقريبه وتكريمه في خلوات الشعر والمُدامة [١٥] ، ويجد في صنعة الفتح بن خاقان متسعاً لاستنباط هذا من نصه الثاني حين قال : « فهشّت له الدولة ، وتاهت به الجملة ، فأحمد اليها قراره ، وأرهفت النكبة غِراره . . . » . ولكنّ للباحث متسعاً رحباً ليقول : إن هذا النص لا يفيد أكثر من سرور الدولة وحبورها بالحصول على ما كان يتنافس فيه أمراء الجزيرة من الاستئثار بذوي المواهب من الشعراء وقهارمة الكتاب ، تنافسهم وتهالكهم في جلب السراري والقِيان ، وقُصارى ما يصحّ التمسك به هو منصب (ذي الوزارتين) ، وذلك ما يستفاد من نص ابن حيان السالف ، وبه حلاّه ابن خاقان نفسه ، وابن الأبار ، وابن بسام . وجاء في عنوان ترجمته له : « ذو الوزارتين الكاتب » ، ولم يزد ابن دحية في كتاب المطرب عند ترجمته [١٦] على لقب « ذي الوزارتين » ، في حين يلاحظ أنه لما ترجم لأبي بكر بن عمار حلاّه بذي الوزارتين ، ثم زاد : « ووزير الشورى » ، وفي صلب ترجمته قال فيه : « أنهضه (المعتمد) جليساً وسميراً ، وقدمه وزيراً ومشيراً » مما يؤكد أهمية الشورى وبُعد منالها ، واختصاص ابن عمّار بها . وقد خرج الأستاذ علي عبد العظيم عن هذه المنصوصات ، وعمد الى تعداد مناصب المعتمد مدرجاً فيها أيضاً الشورى وإمارة الشعراء ، وذلك لغاية اظهار زيادة التقريب المفضي الى التأثير في المعتضد ، فهو عنده — ناصح في مرتبة وزير — و — مرفع لرتبة ذي الوزارتين — و — سفير لدى أمراء الطوائف — و — أمير الشعراء — أو شاعر المصر كما كان يقال ، ثم — كاتب الانشاء .

(١٥) ص ٢٥٩ ، وما بعدها ، تحت عنوان : « مناصب خطيرة » .
(١٦) المطرب ، لابن دحية ، ص ١٦٩ ، ط : دار العلم للجميع .

وهذه المناصب مستخرجة عنده من نص ابن حيان الثاني المذكور آنفاً ، وهو تمطيط ، قد يستجاد لو ساعدت عليه دلالات الألفاظ . ولكن الأستاذ يلحظ في ذلك النص ايجازاً ، بالرغم من التوسع في توليده بمناصب جُلّى ، فيعمد الى بسطه [١٧] في قائمة مناصبه المذكورة كما ترى .

نعم ، يبقى أن يقال إن الوزارة المثناة قد تعني وزارة الشورى الى جانب وزارة الكتابة ، ولا سيما بعد انتهاء مهماته في السفارة التي كانت تعد وزارة . وقد يصح هذا في الاحتمال ، لو لم نكن أمام وضوح وتبيان في نص ابن حيان ، ووزارة الشورى أكبر من أن ينساها شيخ المؤرخين وهو في معرض التعداد ، ولا يعرف له أرَب في التجافي عن التنويه عنها ، وقد ترجمه بلسان رطب ، ، ووفّاه حقه ، ورفع قدره ، ويروون أيضاً أنه جمع شعره . وإن اقتصار ابن حيان على ما ذكر ليثير في نفس الباحث كثيراً من الشك في حقيقة ما رددته أشعار ابن زيدون عن الظفر بنصح الأمير ، ومن اللهج بشوراه ، وتكاد توحي الظاهرة أنها كانت منه مجرد تمنيات وإلحاحاً منه على مولاه ، وجرى ذلك على لسانه تعبيراً عن استجابات معتضديّة عابرة في إحدى ساعاته الرضية ، فانطلق الشاعر لياهي بها شورى نفذت تنفيذ ما يصدر عن البلاط بالطابع والمرسوم عزماً ، فيقول :

حسبيَ النّصحُ والوِدادُ وشكرٌ عطّر الدهرَ منه مِسكٌ فظيظُ

والبادرة التي تثير هذا الشك في أصل هذه الشورى التي يتباهى بها في شعره ، هي تلك التي صدرت عنه عند هجرته الأولى الى اشبيلية أثرَ خلاصه من السجن ، وفي وقت كان مهتماً فيه — كما يؤخذ من أشعاره — بإصلاح ما فسد بينه وبين الجهاورة ، ولم يكن قد قر قراره يومئذ على الهجرة النهائيّة لإشبيلية ، فلم يقم في البلاط العبادي غير أسابيع معدودة كاد يخفى أمرها على الرواة ، ومع ذلك قال :

جهدُ المقلّ نصيحة ملحوظه أفردتُ مهدِيَها فلا إشراكا

(١٧) ص ٢٦٠ .

وما كان يصح لعابر مثله لم تعرف بعد وجهته أن ينال وزارة النصح والشورى، وليس له عندها وجه يحمل عليه في قصر عباد ؛ فلا مفر من القول إنها أضغاث أحلام شاعر ، وطِماح وزير مفصول عن بلده ومنصبه ؛ مفجوع في صبابته . ولقد حقق الأستاذ علي عبدالعظيم ظروف هجرات الشاعر الى بلاط اشبيلية بما لا مزيد عليه من التدقيق ، وبوحي من تحقيقاته نفسها ؛ ذهب أحدنا في هذه القضية الى شمال والآخر الى يمين .

ويمعن الأستاذ في توسيع صلاحيات ابن زيدون التي عددها وخطره ؛ تكميلاً لما أوجزه ابن حيان ، فيرى [18] أن أمور الدولة أصبحت موكولة اليه بعد تجمع هذه المناصب بين يديه ، فيورد نص الصفدي السالف [19] ، وقد جاء فيه : « وجعله من خواصّه ، يجالسه في خلواته ؛ ويركن الى إشاراته في صورة وزير » كما يورد نص ابن دحية المذكور سابقاً ؛ ومحل الشاهد فيه قوله : « وألقى مقاليد أموره إليه » . وأخيراً يكر بالرجعة نحو نص ابن خاقان الذي أصبح في هذا الموضوع بئراً ثرة يمتح منها الحاضر والبادي ؛ والقديم والمحدث على السواء وذلك حين سجع بهذه العبارات المعهودات : «أظهر صولته ، ودبر دولته ؛ وأدجى ضحاها ؛ وأدار بالمكاره رَحاها » .

وهكذا نجد أنفسنا مرة أخرى وجهاً لوجه أمام ابن خاقان ؛ وذلك مباشرة مع نصه هذا بواسطة الصفدي وابن دحية وابن نباتة ؛ لأن هؤلاء قد صدروا كما عرفنا قبل صفحات ؛ عن نص ابن خاقان الأول من طريق دلالته العامة ؛ وعن نصه الثاني الذي جاء فيه : « وألقى بيده مقاد ملكه وزمامه ؛ واستكفى به نقضه وإبرامه » كما أن معالم الاقتباس من نص ابن حيّان ظاهرة في بعض ألفاظ الصفدي ، وإن لم يسجله بنصه الكامل في مقدمة شرحه « تمام المتون [20]. أو لو

(١٨) انظر ص ٢٦٤ .
(١٩) انظر ص ٢٦٠ .
(٢٠) تمام المتون ، مقدمة الشرح ، ص ٦ .

لم يصرح في هذه المقدمة بأن ابن زيدون عند ابن خاقان وابن بسام مذكور ، وعن ابن حيان ينقل ابن بسام كما هو معلوم ، واقتباس ابن دحية منه واضح بيّن ، وقل مثله في نص ابن نباتة الذي جاء فيه صدوراً عن ابن خاقان : « وولاه وزارته ، وفوض اليه أمر مملكته ، وكان حسن التدبير » . وباستيحاء هؤلاء من ابن خاقان وابن حيان ، يعلم أنهم في هذا ليسوا بالرواة ، حتى نعتد بافادتهم ، وإنما هم مجتهدون في فهم نص نقلوا عنه مع زيادة في معناه ، فلا عبرة بهذه الفروع ما دامت النصوص قائمة الأصول ، وهي كما علمنا بين موضح مخصص ، كنصّ ابن حيان المعاصر ، وبين مسجع معمم ، كنصّ ابن خاقان ، ودلالته العامة مفتوحة — كما رأيت — لألوان التقولات والتزيدات بطريق التقدير والاستنباط .

وقد زكّى الأستاذ علي عبدالعظيم [٢١] هذه النصوص بإيراد تحليلتين ، وردت إحداهما على لسان صاحب «المعجب» ، حيث لقب ابن زيدون «ذا الرياستين» ، [٢٢] وجاء الذهبي [٢٣] بالثانية حيث حلاه بـ « بالصاحب » . وينبه الأستاذ الى أن لقب « الصاحب » كان يطلق عندهم على رئيس الوزارة المطلق التصرف في شؤون الدولة كالصاحب ابن عباد ، كما أن الأستاذ يقصد ، ولا ريب ، من التلقيب بذي الرياستين أن العدول اليه عن التلقيب بذي الوزارتين هو لزيادة في المعنى تفيد زيادة التصرف في شؤون الدولة .

وكل هذا واضح ، ولكن هناك ما هو أوضح منه ، وذلك أن الذهبي مؤرخ مشرقي وقع على نص ابن خاقان وابن حيان وعلى النصوص المقتبسة منهما ، ثم أضفى على الوزير المغربي لقباً مشرقياً متداولاً على أوسع دلالات النصوص المغربية والمقتبسات منها .

والأمر أيسر بالنسبة الى صاحب « المعجب » ، فالمنتظر أن لا يغيب عنه أن

(٢١) انظر ص ١٦١ .
(٢٢) المعجب ، ط : سلا ، ص :
(٢٣) سير النبلاء، بواسطة الاستاذ علي عبدالعظيم ، ج١١ ، سفر ٢/٢٠١

مترجمي ابن زيدون من أهل أُفُقه : كابن حيّان ؛ وابن خاقان نفسه ؛ إنما حلّوه بذي الوزارتين ؛ وأن ذا الرياستين لم يكن من ألقاب الوزارة في الجزيرة ، وإنما هو من ألقاب بعض الرؤساء والأمراء ؛ كذي الرياستين أبي مروان عبد الملك بن هذيل صاحب « السهلة » ؛ ومثله « ذو السِّيادَتَيْن » الذي اتخذه عبدالملك ابن جهور لقباً له . فالذي يبدو أن المراكشي الذي ألف كتابه في المشرق ؛ قد وضع لقب « ذي الرياستين » موضع « ذي الوزارتين » ؛ ليقرّب الى أذهان المشارقة مرتبة الوزير المغربي بما يشبهها عند المشارقة ؛ قاصداً أنه من الخاصة المقربين ؛ وغاشية صاحب الأمر المحجوبين ؛ وإلا فان إحدى الرياستين تعني عندهم رياسة السيف ؛ وما كان لابن زيدون غير سيف لسانه الذي أشرعه في صدر طالما جالت فيه أنامله ؛ وضاعت بين ألطافه أنفاسه . وقد يكون قصد صاحب (المعجب) مجرد الإشارة الى رياسة الأدب ورياسة الحكم ؛ غير ناظر في ذلك الى اللقب المعهود في الرسميات والمصطلحات .

ويعزز الأستاذ [٢٤] في الأخير ما يراه من خطورة مناصب ابن زيدون بأقوال المحدثين ، فجلب نص « المستشرق كور » في « دائرة المعارف الاسلامية » : « وكان كاتم سر المعتضد ؛ ثم كبير وزرائه » ، ثم ساق قول الأستاذ فيليب حتي في « تاريخ العرب المطوّل » : « ولاّه رئاسة الوزارة وإمارة الجيش » . وليس من شك في أن « المستشرق كور » إنما استقى من السابقين ابتداءً من ابن خاقان ؛ ثم عبر عن إفادتهم المذكورة المعممة في التفويض والتقليد بما يماثل ذلك من مناصب أهل العصر ، التي فيها زيادة التصرف بالنسبة الى تصرف مطلق وزير . وذلك ككاتم السر ، أو كبير الوزراء كما هو بيّن . وأما عبارة الأستاذ « فيليب حتي » فلا تستند في تاريخ الى أساس ، ولا إلى اصطلاح ؛ فإطلاق رياسة الوزارة إنما هو تعبير من عنديّته لإفادة زيادة التصرف ، وليس هذا مما يصح الاستشهاد به . وإمارة الجيش في عبارته قد استبعدها الأستاذ علي عبد العظيم نفسه . لأنها غير

(٢٤) انظر ص ٢٦١ من كتاب ابن زيدون للأستاذ علي عبدالعظيم .

منصوص عليها عند المؤرخين . وأضيف الى ذلك أن الاستاذ فيليب حتي قد اختلط عليه هنا ابن زيدون بابن عمار ، فهو الذي كان يُسيّر على رؤوس الجيوش [٢٥] كما شاءت غبطة المعتمد فيه التي لم تعرف لها حدود ، وفي ذلك يقول :

ومَنْ ذا الذي قاد الجيادَ الى الوَغَى
سِوايَ ؟ ومن أعطى الكثير ولم يُكَدِ ؟

ومن الملحوظات التي يتعين الالتفات اليها في المقام أن عبارة ابن خاقان : « أظهر صولته ، ودبر دولته » ، ثم عبارته الأخرى في نصه الثاني : « وأنقى بيده مقاليد ملكه وزمامه ، واستكفى به نقضه وإبرامه » ، ومثيلاتهما ، كقولهم : « ألقى مقاليد وزارته اليه » ، و« فوّض اليه أمر مملكته » ، أو كقول ابن بسام [٢٦] في ذي الوزارتين الكاتب أبي القاسم محمد بن عبدالغفور صاحب المعتمد ورضيع لبان كأسه وأُنسه : إنه « أرعاه تلاعه ، وعصب به خلافه واجماعه » ، ونظيراتها كثيرات . هذه الفقرات تعد كلها من العبارات والإفادات التقليدية المسجعة والمحفوظة على غرار العبارات المتداولة المعروفة بتلفيقات الموثقين الفقهاء ، وأكثر ما ترد في نصوص المؤرخين الأدباء ، وأشير على سبيل المثال الى قول ابن الأبار [٢٧] في ترجمة أبي بكر بن القصيرة ، وقد كان المعتمد على الله ثَنّى وزارته : « إنه عظمت حاله ، واتّسع مجاله ، واستولى على دولته استيلاء قصر عنه أشكاله » . وهذا على غرار ما سمعناه آنفاً بحروف أخرى ، موهماً تصرف ابن زيدون المطلق بغير حدود ، مع أن المعروف أن ابن القصيرة قد استكتب بعد ابن عمار الوزير المشاور ، وما كان المعتمد بن عباد ليلدغ من جُحْر مرّتَيْن بعدَ الذي جرى وكان من ابن عمار الوزير العديم

(٢٥) المطرب ، لابن دحية ، ص ١٦٩ ، ط : دار العلم للجامعيين .
(٢٦) مخطوطة الذخيرة ، لابن بسام ، الجزء الثاني من تجزئة احدى نسخ «الخزانة الملكية» العامرة بالرباط ، رقم ٩١٤٤ .
(٢٧) اعتاب الكتاب ، ط : مجمع اللغة العربية بدمشق ، ص ٢٢٢ ، وما بعدها.

السياسة والتدبير [٢٨] في الدولتين ، وهو الذي اتسع حقيقة ومجازاً مَجَالُه ، واستولى على دولة المعتمد استيلاء لم يتطلع اليه أشكاله ، فوضع ابن القصيرة ، ولو أنه رقي عند المعتمد الى ذي الوزارتين ، ما كان ليظفره عنده بذلك الاستيلاء الذي قصر عنه أشكاله ، كما يعبر ابن الأبار ، وإنما المقصود من مثل عبارته التي رمت الى الصَّناعة اللفظية ، أكثر مما نظرت الى الحقيقة التاريخية ، أنه أصبح يتصرف كثيراً في عهد المعتمد ، بعدَ ما كان تصرفه قليلاً في عهد سلفه المعتضد ، لا سيما وابن الابّار يقول أيضاً في ابن القصيرة في السياق نفسه : « وأكثر ما عوّل عليه في السفارة » .

ويعترضنا صاحب « قلائد العقيان » [٢٩] في نهاية هذا المقام ، مثلما استقبلنا في بدايته ، فنجده يقول في أبي بكر بن القصيرة بعد سجعات أقامته غُرَّةً في جبين الملك ، وجعلت الأيام تباهي به ، والأقلام تتيه في يمينه : « فاشتملت عليه الدول اشتمال الكِمام على النَّوْر ، وانسربت اليه الأماني انسراب الماء الى الغَوْر ، وأتت الدولة اليوسفيّة ففازت به قِداحُها ، وأورى زندَه اقتداحُها » فهذه التهاويل الصناعية تكاد تنحرف بالقارئ عن صميم الموضوع ، ولولا أنه أردف فواصله وأسجاعه بما يفيد أن رفع أمير المسلمين يوسف من شأن ابن القصيرة على ذلك المنوال ، انما هو منوط بالإنشاء والبيان ، لذهب الفهم في نصه كل مذهب ، ولقيل عن صدارته في الدولة اليوسفية ما قيل وفهم عن صدارة ابن زيدون في الدولة المعتضدية .

والواقع أن كل العبارات من هذا القبيل ، يتعين أخذها بهذا المأخذ ، وإلاّ ضل الباحث عن الفهم ، وفاته القصد ، وذلك ما لم تتوارد النصوص وتشهد الأحداث بأن التفويض كان كاملاً ، وان الزِّمام كان مرسلا ، كما دوَّت الأخبار بذلك عن أبي بكر بن عمار ، ولا يقع الباحث على مثل ذلك بالنسبة الى أبي الوليد ابن زيدون في سفر من الأسفار .

(٢٨) المطرب ، لابن دحية ، ط : دار العلم للجامعيين ، ص ١٦٩ .
(٢٩) ترجمة ذي الوزارتين ابي بكر بن القصيرة .

واتجه الأستاذ علي عبدالعظيم نحو مسلك آخر ، اعتمده لإثبات تأثير ابن زيدون في المعتضد ، وذلك بوسيلة الافتراضات والتقديرات التي تشكل اعتبارات من شأنها أن تسند مفاهيم الافادات التاريخية التي لم تكن نصوصاً قطعية في المراد ، وفي هذا الصدد يقول الأستاذ علي عبد العظيم [٣٠] : « وكان المعتضد يعلم عن ابن زيدون أنه يتقن فن السياسة ، ممّا يؤهله لبذل النصح الثمين ؛ ويعرف أنه اتصل بملوك الجزيرة ، وخبر أحوالهم ؛ ودرس طبائعهم ؛ وعرف مكان الضعف فيهم ، فهو جدير بأن يبصر المعتضد بالخطة المثلى في الحروب أو السلام » .

ورؤية الأستاذ هذه تنصب على «صميم» الموضوع ، وكأنها خلاء من أيّ شاخص يعكس ظلاً ، أو نسمة تنبعث من أنفاسها نَأمَة ، فكيف وعلى ظهرها المعتضد العملاق الذي رَجّها رَجّاً ؛ وأثار بخطواته القارعة هَوْلاً ؟ وأعني أنه لا مناص للباحث من أن يجعل نُصب عينيه أن المعتضد — كما يصوره المؤرخون قاطبةً — لم يكن من هذا النوع من الساسة الذين يقتفون أساليب بعينها ، أو يهتدي بتجربة رجل سياسة ، أو خبرة صاحب اطلاع ومعرفة ، فالمعتضد إنما كان ينظر في وزيره ابن زيدون قبل كل شيء الى النديم لا الوزير ؛ وكان يشرئبّ فيه الى قُنّة الفكر والشاعر الكبير ، ويرنو الى النجم الذي سيتلألأ في بُهْرَة خاواته بين السامرين والمغتبقين ، وما أحسب أنه كان له أَرَبٌ في ابن زيدون حِلْس الدّواوين ، فقد كان بلاطه يتوفر على نخبة من هؤلاء ذوي الخبرة والتجربة الذين كانوا — فيما يظهر — يسمعون عنه ويأخذون أكثر مما يعطون ؛ وشأن ابن زيدون كشأن كل ذي وزارة ، أو ذي وزارتين ؛ وقد كان ثالث ثلاثة من كابري [٣١] وزراء المعتضد ، كما عبر ابن حيان ، ومع ذلك فوضعيته هي وضعية ذوي الدراية منهم نفسها من غير زيادة ولا نقصان ، كالوزير أبي عامر ابن مسلمة الذي وطّأ لشاعرنا البساط في ذلك البلاط ؛ والوزير أبي الوليد بن

(٣٠) ص ٢٥٠ .
(٣١) الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ٣٥٥ .

عبد العزيز بن المعلم ، فهم جميعاً ، وان ثنيت وزارتهم ، منزلون منزلة الأدباء والشعراء ، الذين يعج بهم البلاط ، كأبي جعفر أحمد بن الأبّار ، وكالأديب أبي الحسين علي (ابن حصن) منافس ابن زيدون . فما كان المعتضد يرجع اليهم لغير كتاب يصدر عنه ، أو لجلوس على وَفْق مراتبهم بين يديه ، وذلك لأن أمر هذا الملك إنما قام — كما عرفنا — على وحي عبقريته ؛ فكان ديوانه أريكته في عريسته ؛ وهي خلوته التي يستوحي في صمتها المطبق عمل يومه وساعته لتسيير شؤون الرعية ، وإدارة الجيوش ، وتسيير المعارك ؛ كما نقله المؤرخون . فحصارى أمر وزرائه أنهم زينة في مجلسه ؛ والمحظوظ بينهم من أهّله استعداد كابن زيدون لمطارحة الأشعار ومعاطاة كؤوس العقار ؛ وفيهم من كانت تستدرجه شهوة المعتضد لخلوات الليل النيرات ؛ وإن لم يكن من أهلها ؛ كالوزير ابن مسلمة ، ولكنه كان يداري ويساير حين يدعى لها ، فيهطع اليها ؛ وإن الصورة التي رسمها لنا ابن بسام [٣٢] لصراع الحظوة والحظوظ بين ابن زيدون ومنافسه الشاعر ابن حصن ؛ لتثير الشك في جدية تعلق المعتضد بخبرة رجال بلاطه ، وبمعرفة ابن زيدون بالخطط المُثْلى في معاملة الرؤساء والملوك ؛ فمن خلال ما يرويه ابن بسام في ترجمة ابن حصن يتبرج لخيالنا مشهد من مشاهد حلبات صراع الديكة في هذه العصور ، فنرى المعتضد يرسل أحد الشاعرين المتنافسين على الآخر ، ليرضي شهوته القاهرة بتَنابُزِهما وبدَوَران المشائين الذين يطلقهم بينهما .

وهكذا في مثل هذا الجو يبدو أن الخبرة الخاصة التي يقدر الأستاذ أنها خبرة سياسية واجتماعية تؤهل ابن زيدون « لبذل النصح الثمين » ، وتجعله « جديراً بأن يبصّر المعتضد بالخطة المثلى في معاملة ملوك الجزيرة » إنما هي في نظرة المعتضد خبرة الشاعر بالطبيعة والمزاج ؛ وأصالة النديم بقيام الليل والقعود للكأس ؛ قبل أن

(٣٢) الذخيرة ، مخطوطة القسم الثاني ، في ترجمة ابي الحسين علي (ابن حصن) .

ينطوي تحت برديه الوزير بالممارسة ولعبة السياسة في ساحة الملوك والرؤساء . وقد كان ابن زيدون حقاً وزيراً مكايداً مصابراً نعرف من قصة مصير ابن حصن الذي مكر به وأرداه ، وكما نعلم أيضاً من قصة ظفره بالكتابة عن المعتضد التي كاد فيها لسلفه ابن عبدالبر ، وداوَرَ ليحل محل الباجي المرشح ؛ ولكنه كان حتى في كيده ومكره شاعراً مغلباً لطاحه ؛ ومكشوف السريرة ، بلسان حادّ تديره أعصاب مهتاجة ، لا تحد طغيانها قيود رويّ أو قافية .

ويقربنا من هذا الذي أراه أنّ ابن زيدون ما حمل في مناصبه أو في صداقاته إلّا على وجهه الأدبي الذي أشرق في سماء بني جهور ؛ فاختص به أبو الوليد ابن جهور قبل مصير الأمر اليه، صديقاً ونديماً في ساعات لهوه وغواياته . وحينما ارعوى الأمير ابن جهور وتبتل ، ثم انصرف الى جد أمانة الحكم التي صارت اليه ، بعد أبي الحزم والده ، كان وجه ابن زيدون الشاعر المنادم داعية صرفه عن وزارته ، والعدول بها عنه الى غيره . وحينما راجع نظرته اليه وصرفه في السفارة[٣٣] لم يرجع فيه الى الخبير العارف بأحوال الرؤساء ؛ وإنما الى صاحب العارضة واللسن. وعن مؤهلاته هذه للسفارة قال ابن حيان : « وصرفه في السفارة بينه وبين رؤساء الأندلس فيما يجري بينهم من التراسل والمداخلة ، فاستقل بذلك؛ لفضل ما أوتيه من اللسن والعارضة ، فاكتسب الجاه والرفعة » .

ولما ألمّ بإدريس العالي بمالقة في سفارته الشهيرة ، لم تُغْرِ هذا الشريفَ الأميرَ شخصيةُ ابن زيدون السياسية وخبرته الأندلسية ؛ التي قد يستفيد منها لدعم إمارته ، وانما استيقظت فيه غبطة الأمير اللاهي الذي طلع عليه السفير الشاعر بالمنادم الذي « خف على نفسه ، فأحضره مجالس أنسه»[٣٤] . وأخيراً هاجر الى المعتضد عباد ، فقال ابن حيان ، مرتباً صلاحياته في بلاطه على هذا

(٣٣) الذخيرة : القسم ١/٢٩١ .
(٣٤) الذخيرة : القسم ١/٢٩١ .

المنوال : « وصار من خواصه وصحابته ؛ يجالسه في خلواته ، ويسفر له في مهم رسائله » .

وقد عرفنا أن ابن حيان لم يذكر له بعد السفارة ذات المؤهلات المشار اليها غير الكتابة عن المعتضد عباد ؛ وهي وزارة إنشاء ، اضطلع بها قبله وبعده في ذلك البلاط أدباء ، أوردت ذكرهم في غير هذا المقام ، وهم عند مترجميهم فرسان أقلام ؛ وقيارمة بياض وسواد ؛ وليس من مهماتهم نصح أو شورى ؛ ولا سيما ونحن في ساحة المعتضد عباد .

نعم ؛ إننا أمام ظواهر خبرة ، فالأستاذ علي عبد العظيم يقول [٣٥] : « كان المعتضد يتطلع الى انتهام قرطبة ؛ فكان يفسح صدره للمهاجرين منهم ، ويغمرهم بآلائه ، فاذا ظفر بابن زيدون الذي ولي وزارتها ؛ وسفر لها ، وخبر أمورها ؛ فقد ظفر بغُنْم عظيم ، يسهل عليه سبل انتهامها » .

وعن ولده وخلفه المعتمد ؛ ذكر تحت عنوان «فتح قرطبة» كما نقلت قوله سابقاً بحروفه : أنه كانت به حاجة قوية الى خبرته وحنكة تجاربه .

وهكذا يعترضنا الأستاذ أيضاً بظواهر الخبرة والحنكة ، التي استناد منها السلف والخلف ؛ ولكنها منوطة كلها بتحريضهما على قضية فتح قرطبة ؛ وبها وعندها ابتدأت وانتهت النصيحة والمشورة .

ونجد هذا التحريض مسجلاً بعبارات مختلفة ؛ فهو « يذكي في المعتضد شهوة فتحها » ؛ [٣٦] « ويسهل لهم هذا الفتح » [٣٧] ؛ « ويسهل له سبل انتهامها » ؛ [٣٨] « ويؤجج فيه هذه الرغبة » [٣٩] ؛ « ويذكي نهم ابن عباد الى انتهامها » [٤٠] .

وهي غريبة حقاً أن لا تقع بين دفتي كتاب الأستاذ علي أيّ مظهر من مظاهر خبرة ابن زيدون وحنكته في غير ما يتصل بهذا الفتح المبير .

(٣٥) ص ٢٥٠ . (٣٦) ص ٢٥٠ .
(٣٧) ص ٢٤٩ . (٣٨) ص ٢٥٠ .
(٣٩) ص ٣٧ . (٤٠) ص ٢٨٥ .

وهكذا ، تبعاً لهذه الافادات ، وتطلع المعتضد الى قرطبة ، أفاءت عليه قرطبة ابن زيدون من ريعها — كما يرى الأستاذ — من حيث هو ابنها الأصيل ، الذي كان من ورائه أهل وأحباب ، وشيعة وأنصار « حتى في بلاط بني جهور » وأن هؤلاء قاموا كما يعلم من نص [41] الأستاذ المسوق سالفاً بلفظه بدور الكتيبة الخامسة في قلب قرطبة ، وبترجيه ابن زيدون أجمعوا أمرهم على خلع عبدالملك ابن جهور والدعوة لبني عباد .

وتتمة لهذا الافتراض والتقدير ، وانسياقاً مع ما أوحت به خبرة ابن زيدون ودفع اليه تحريضه — بحسب ذلك الافتراض — بطرقه المختلفة ، اندفع المعتضد الى مداورة كان ابن زيدون يتراءى فيها الربح المضمون واللعب على ذقن المأمون بن ذي النون ، وذلك شأنه ضلله ، وهو بالطمع في قرطبة مجنون ، فتظاهر له بأنه لن يضايقه في الاستيلاء عليها ، على أن يكون العوض تسليمه « قرمونة » [42] ،

(٤١) انظر كتاب (ابن زيدون) للأستاذ عبدالعظيم ، ص ٢٨٥ .

(٤٢) كل هذا ملخص من منطوق نص الأستاذ علي عبدالعظيم ومفهومه الذي اوردته بلفظه سابقا ، وتجده في (ص ٢٨٥) من كتابه . وقصة «قرمونة» قد اختصرها الأستاذ اختصارا يفهم منه ان «قرمونة» كانت في الأساس من املاك المأمون ، والواقع انها كانت من املاك الرئيس عبدالعزيز بن اسحاق آخر امراء البرازلة اصحاب «قرمونة» و «أستجة» و «المدور» ، وكانت بينهم وبين العباديين ثارات ، وشاخت الحرب بينهم ، وضاقت احوال هذا الامير باعتداءات المعتضد على تراب امارته ، فحاول أن يكيد المعتضد بعرض تقدم به الى المأمون بن ذي النون صاحب «طليطلة» ؛ لما يعلمه من ان المنافسة بينهما في الزعامة قائمة سائرة . وذلك انه عرض على ابن ذي النون ان يتنازل له عن «قرمونة» ، لقربها من املاكه ؛ على ان يعطيه عوضها في بلاده الجوفية ، حتى يكون بنجوة من الاعتداءات العبادية ، وتم التنازل ، واستقر الامير البرزالي في «المدور» ينتظر تمام الصفقة ؛ واذا بالمعتضد ينهد للعمل في حينه ، فيداخل المأمون ، ويطمعه في المساعدة على تملك قرطبة ، في مقابل تسليم «قرمونة» ، ونجحت الحيلة ، وتنازل المأمون للمعتضد عنها ، وظل صاحبها العزيز البرزالي يدور في «المدور» الى ان تلاشى ، فكان آخر العهد به ، وبمملكة هؤلاء

وتمت الصفقة وانطلت على المأمون الحيلة ، واستشف المعتضد جدوى خبرة ابن زيدون القرطبية ، الذي يعلم أن المأمون وهو بربري « سيجد مقاومة عنيفة من أهل قرطبة ، موقناً (أي ابن زيدون) أن بغضهم للبربر سيحملهم على الاستعانة بابن عباد » ، ومعنى هذا أن المأمون ستخرج من يده مالقة ، ولن يستولي على قرطبة ، وتصبح كل منهما في ملك المعتضد عباد ، وذلك ما كان .

وهذه القرطبيات ليست بالاعتبارات القوية التي يمكن أن يُستأنَس بها لإثبات تأثير ابن زيدون في المعتضد كما هو المراد ، لأنها لا تنبع من حقائق تاريخية ، ولأن بعضها لاينسجم مع ما يتمثله الباحث من الأوضاع السابقة واللاحقة لممالك الجزيرة ، وفي هذا يقال : إن قرطبية ابن زيدون بمشخصاتها ومقوماتها المذكورة مما يثير الغبطة حقاً فيه عند عباد ، ولكن الى حد محدود ، لأن اشبيلية العباديين كانت تعجّ في ذلك التاريخ بالكثير من القرطبيين ذوي الخبرة وأصحاب المواهب الفكرية الذين هاجروا اليها منذ بداية الفتنة ، فقد كان محمد بن اسماعيل جد المعتضد عباد يؤوي صنوف جالياتهم ، ويرحب بالتجائهم . ولابن الأبار في هذا المعنى نص معروف جلبه الأستاذ نفسه حجة في المقام . ولكن النظر اليه الآن من زاوية أخرى أخرجه — كما ترى — عن سياقه هناك الى هذا المساق .

وقد كانت للشخصيات القرطبية هجرة أخرى الى كَنَف بني عبّاد ، وذلك حين أعلن القاضي أبو القاسم والد المعتضد أخلوقة هشام المؤيد ، وهذه الهجرة محتملة متوقعة ، وإن لم ينص عليها التاريخ ، ولم تذكر أسماء المهاجرة من أعلام القرطبيين وأعيانهم ، فمن المتوقع أن يزعج اليها مبدأ التشبث بالخلافة في إشبيلية ، بعد أن زاغ عنه أبو الحزم بن جهور في قرطبة ، ولج في معارضة القاضي ابن عباد ، على الوجه الذي عرفناه .

= البرازلة . البيان المغرب ، الجزء الثالث ٢٨٣/٣ و ٢٦٩ . ذيل البيان المغرب ، ص ٣١٢ . تاريخ ابن خلدون ج ٥٧/٤ . أعمال الاعلام ، ٢٧٣/٣ الخاص بالأندلس .

والقرطبية الثانية تطالعنا بغرابة أخرى حين نتصور أن بني عبـــاد سواء منهم المعتضد ، أو والده القاضي ، أو ولده أبو القاسم المعتمد – قد كانت بهم حاجة الى من يحرضهم على فتح قرطبة ، بعد الذي عرفنا من أن سياستهم في الزعامة كانت قائمة على امتلاك ناصية دار الخلافة ، وذلك شأن كل متزعمة ذلك العهد الذين كانوا يتطلعون اليها . وقد تجاوز العباديون التطلع الى العزمات بحسب تعبيرات سالفات ، ومازلنا نذكر عزمة القاضي ابن عباد والد المعتضد ، حين نازلتها كتائبه بقيادة ابنه وقائد جيشه اسماعيل في جولتين ؛ وكان حتفه في الثانية عام ٤٣١ هـ . وأهم ما يذكر الذاكر على هامش هذا أن ابن زيدون قد سفر لأبي الحزم بن جهور لدى باديس صاحب غرناطة ، في شأن الشكر على النجدة التي شَتَّتَتْ أجناد العباديين ، وحزت رأس قائدهم اسماعيل . ومنذ ذلك اليوم أصبح الدم العبادي المهراق على ثرى أرباض قرطبة ، وصراخ هامة ابنهم اسماعيل ، يذكيان فيهم النهم المسعور للظفر بها ، فأين يا ترى نضع تحريض ابن زيدون المفترض الماثل طَوالَ اثنين وعشرين عاماً ؟ في باب المحرّضات ، أم في باب ثارات الدماء ؟

وشيعة ابن زيدون وأنصاره : كيف جاز أن تصح لهم مداخلة مع أهل قرطبة ، من ابن زيدون ، أو بمحض الاقتصاص له من الجهاورة ، حتى تكون من أسباب الإطاحة بدولتهم المنكودة ؛ ثم لا يكون للمؤرخ شاهد البطشة الكبرى وغيره من المؤرخين خبر هذه الشيعة الزيدونية التي شاركت في الإجهاز على دولة ، ورفع الراية لأخرى ؟ مع أن أهل قرطبة في غنى بطبيعتهم عن كل تحريض وإثارة ، فقد كانوا كما نقل ابن سعيد عن والده : « أكثر النّاس فضولاً ، وأشدهم تشنيعاً وتشغيباً ؛ ويضرب بهم المثل بين أهل الأندلس في القيام على الملوك والتشنيع على الولاة وقلة الرضا بأمورهم » . وفي هذا يروون أيضاً [٤٣] عن السيد أبي عيسى بن يعقوب بن عبدالمؤمن أنه قيل له حين انفصل عن ولايتها : « كيف وجدت أهل قرطبة ؟ قال : مثل الجمل ؛ إن خففت عنه الحمل صاح ، وان أثقلته به

(٤٣) نفح الطيب ٣/١٥ ، تحقيق : محمد محيي الدين عبدالحميد .

صاح ! ما ندري أين رضاهم فنقصده ، ولا أين سخطهم فنجتنبه ؛ وما ساط الله عليهم حجاج الفتنة حتى كان عامتها شراً من عامة العراق ، وإن العزل عنها لما قاسيتُ من أهلها عندي ولايةٌ ، وانْ كلفت العودَ اليها لقَائلٌ : لا يلدغ المؤمن من جُحْر مرتين » .

وبإزاء هذا ، كانت سيرة عبدالملك بن جهور الذي كان يومئذ بيده الأمر ، كافية لإثارة هذه النزعات القرطبية : فقد استبد وطغى وفجر وتكرّهَ الى الناس ، بحسب تعبير ابن خلدون في المقام ؛ وأصبح الغويّ الظالم في لسان أهل الزمان ، فلا غرو أن ينحازوا من تلقاء أنفسهم الى العباديين الذين أجلوا المأمون عن الحاضرة ؛ واستولوا عليها غِرّةً في اللحظة التي كان يتهيأ عندها عبدالملك لتوديع عسكرهم وشكرهم على دفاعهم .

فلن يصحّ في التقدير اعتبار مداخلة من شيعة ابن زيدون ، أو احتياج الى تحريض منها كما هو مفهوم .

ودونك أيضاً قصة انتزاع المأمون بن ذي النُّون قرطبة من يد العباديين بعد ذلك في (جمادى الأولى ٤٦٧ هـ/ ديسمبر ١٠٧٤ م) بنزوة ابن عكاشة ؛ فهي تعرضهم علينا وهم يشاركون في البطش بابن مرتين ؛ قائد حامية قرطبة والمساعد بالجنب لواليها الظافر عباد بن المعتمد ، وابن مرتين هو هو نفسه الذي بيتوا معه من قبلُ الانتقاضَ على الجهاورة ، والمناداة بحكم العباديين ؛ وقد قال الفتح بن خاقان ، وهو يحكي القصة ، ويشير الى مأساة الظافر [٤٤] : « ولم يزل فيها آمراً وناهياً ؛ غافلاً عن المكر ساهياً ، حسن ظن بأهلها اعتقده ؛ واغترار بهم ما رواه ولا انتقده ؛ وهيهات ! كم من ملك كفنوه في دمائه ؛ ودفنوه بذمائه ؛ وكم من عرش ثلوه ؛ وعزيز أذلوه » .

---

(٤٤) قلائد العقيان ، تصحيح : سليمان الحرائري ، ص ١٢ .

وما أحسب بعد هذا أن بأهل قرطبة – وقد كانوا في هَيْعَة – حاجة الى تنغيم من ابن زيدون ، لتعروهم هزة الانقلاب ؛ كلما تغيرت الأحوال : وعرفت الساحة الغالب والمغلوب ! ومن المستبعد أيضاً أن يعتقد وينظر الى المأمون بن ذي ذي النون ، على أنه في عداد العناصر البربرية التي كان القرطبيون يضمرون لها حقداً موروثاً ، وأن يرتب على هذا « أن بغضهم (أهل قرطبة) للبربر سيحملهم على الاستغاثة بابن عباد » . وبهذا لن يتم لابن ذي النون البربري في قرطبة مراد .

وهذه النظرة الى المأمون بن ذي النّون التي رتب عليها الأستاذ افتراضه وتقديره ، منطلقة ولا ريب من الأخذ بظاهرة الصراع بين العنصرية العربية والعنصرية البربرية ، الذي كان له تأثيره في سير بعض أحداث الجزيرة ، وفي تصرفات بعض رجالها . وذلك رعياً لِما كان لصراع المضرية واليمنية من تأثير ، إنْ في الأحداث المشرقية ، أو المغربية بالجزيرة الأندلسية . ولكن الذي تتعين مراعاته والأخذ به في هذا المقام ، هو أن ينظر الى بربر الجزيرة على أنهم عنصران اثنان : برابرة قُدامى « تأقلموا » بمرور الأجيال ، وانصهروا مع العرب ومع أبناء البلاد من المولدين والمسلمة المتعربين – والعنصر الثاني برابرة طارئون عرفوا بالطوارئ وبمرتزقة البرابر ، ولايطلق هذا التعبير أساساً على حشود قبيل برابرة صنهاجة الذين فسح لهم عبدالملك بن أبي عامر في الدخول الى الأندلس بالرغم من أن والده المنصور قد استنكف قبله من إقامتهم بها . وهذا هو العنصر البربري الذي عرف بالتشغيب ، والقيام بالفتن ، ودواهي التخريب في قرطبة ، وخلف في نفوس أهلها حقداً على مر الزمان .

وقد كان دخول هذا القبيل من صنهاجة خاصة الى الجزيرة مثيراً للعرب الذين شاءت لهم سياسة الاحتراس ، التي أخذ بها المنصور بن ابي عامر من قبل ،

أن تؤخرهم عن مقامات الدولة ، وتسقطهم من مراتبها الكبرى [٤٥] ، ومن ثَمَّ كان دخول حشودهم الجزيرة سببَ قيام تضامن ، جمع كلاً من العرب الذين أصبحوا أقلية يومئذ ، والبرابر القدامى ، ثم المولّدين من أهل البلاد والمستعربين المسلمة منهم ، وألّف هذا التضامن جبهة لمواجهة كل من الصقالبة والبرابرة الصنهاجيين الطارئين . وعن هذا التكتل تولدت عصبية جديدة أطلق عليها العصبية الأندلسية [٤٦] ؛ وقوامها الأصالة الإقليمية ، تلك التي أمدتهم – عرباً وبربراً – بمقومات حضارية وذوقية ، فكانت حواضرهم على مستوى واحد من القيم والمشخصات التي انتهت الينا آثارها الفنية ، وأخبارها العلمية والأدبية ، وكأنها تراث مملكة واحدة متحدة العرق واللغة .

وفي ظل هذه العصبية الأندلسية الجديدة قامت زعامة العباديين الذين كانوا يشرئبّون من عاصمتهم اشبيلية الى توحيد ممالك البربر الأندلسيين ، كبني ذي النون أصحاب طليطلة ، وبني الأفطس أصحاب « بطليوس » وبني رزين أصحاب « السهلة » ، مثلما تطلع العباديون الى احتواء الممالك الصقلبية التي دفعتها مصالحها في الأخير الى الانضمام الى هذه الكتلة الأندلسية بعد سابق جنوح الى هؤلاء تارة ، والى أولئك أخرى ، وذلك بأثر قيام إمارتهم الصغيرة المعروفة بالإمارات العامرية في شرقيّ الجزيرة .

وقد تنبه المؤرخون القدامى الى هذه الظاهرة ، فنقع على تعبير (أهل الأندلس) عند ابن بسام ، نقلاً عن ابن حيان ، حين يقول [٤٧] عند ذكر خبر مقتل الأمير

(٤٥) تاريخ ابن خلدون ٤/١٤٨ .

(٤٦) راجع الفصلين المهمين ، الثالث والرابع ، من كتاب : «قرطبة حاضرة الخلافة الاموية» للدكتور عبدالعزيز سالم . وارجع ايضا الى شذرات مبثوثة في كتاب : «نفح الطيب» تعد اصلا ومصدرا لاستقراء معالم هذه الظاهرة .

(٤٧) الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الاول ٣٩٨ ، الطبعة الاولى .

المرتضى ، وذلك على لسان المنذر بن يحيى الذي مر بسليمان بن هود صاحبه ، وهو ثابت للافرنجة لا يريم موقفه : فصاح به : « النجاة يا ابن الفاعلة : فلست أقف عليك ، فقال له سليمان : جئت والله بها صلعاء ، وفضحت أهل الأندلس » . ثم حين يقول [٤٨] مرة أخرى في الفصل نفسه : « ولهول ما عاينه زاوي الصنهاجي من اقتدار أهل الأندلس في تلك الحرب » ، ثم عند ابن عذاري [٤٩] وهو يتحدث عن مساوئ عبدالرحمن بن ابي عامر : « ونادم وجوه الجنسين أعني البرابر والأندلس » . وبأوضح من هذا نجد ابن الخطيب [٥٠] يصرح بعبارة (العصائب الاندلسية) ، فيقول وهو يتحدث عن دولة علي بن حمود بقرطبة : « ولما التف البرابرة والمغاربة بسليمان استيحاشاً من العصائب الأندلسية » ، وتارة يصرح [٥١] بعبارة (العصبية الأندلسية) .

ويفهم من هذه النصوص أنها صورت الوضع بعيد ظهور بوادرها تقريباً الى أن تبلورت الظاهرة في التعبير الواضح بالعصبية عند ابن الخطيب ، مع العلم بأن تعبير ابن حيان المنقول عن ابن بسام ينم على « تبلور » سابق ، لم يخف على ذلك الألمعي الذي زوده الله بحاسة سادسة ، زيادة على ما كرم به بني قومه من فطنة وألمعية .

وهكذا يمكن أن نقول إن اعتبار المأمون بن ذي النون من قبيل تلك العناصر البربرية التي بذرت البغض والإحنة في نفوس أهل قرطبة ، هو مما لا ينسجم مع هذه الظواهر التي تنبه اليها القدماء ، وحللها المحدثون على أنها حقائق تاريخية جديرة بالالتفات . هذا ، مع العلم بأن أهل قرطبة لم يكونوا ليروا في المأمون بن ذي

(٤٨) الذخيرة ، القسم الاول ، المجلد الأول ٤٠١ .
(٤٩) البيان المغرب ، ٣/٢٧٠ .
(٥٠) أعمال الأعلام ، جزء الأندلس ، طبع بيروت ، ص ١٣٨ .
(٥١) أعمال الاعلام ، ٨٧ .

النون – لأسباب أخرى سبقت الإشارة اليها – ذلك البديل الذي يسد مسدّ الجهاورة أو بني عباد الذين خلفوهم في الحاضرة .

فما حاجة قضية بني عباد القرطبية لشيعة ابن زيدون ومداخلاتها في قلب قرطبة ، وقد غوي صاحبها عبدالملك وتكرّه الى أهلها ، وكسبها المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة ، وبمهامز قشتالة ركض في أرباضها ؟

ونستطيع أن نسجل الآن أننا لم نعثر في هذه الفروض والتقديرات على ما من شأنه أن يدلنا على تأثير ابن زيدون في المعتضد عباد ، ذلك التأثير الذي يجعل أمور الدولة كلها . ومنها الفتوح ، موكولة اليه ، والزمام مطلقاً في يديه على مدى أصداء سجع ابن خاقان . وهذا ، مع العلم أن حظوته في البلاط وحلوله من المعتضد بذلك المكان الذي حلّ ، قد أتاحت له أن يتصرف بالرفع والوضع ، ويصرف السلطان بالضرّ والنفع ، ولا ريب أن هذا ما ضاق به خصومه ، لئلا يصبح سلطان الماتّة على عهده فوق كل سلطان ، ومقام الأستاذيّة فوق كل المراتب والألقاب .

المنطلق الثاني للجواب عن سؤال : من كان وراء (البطشة الكبرى)؟ ويرتكز على أن نقمة ابن زيدون على الجهاورة هي داعية انتقامه بالتحريض المتوالي على (البطشة الكبرى) ؛ أو بالوقوف وراءها ، كما في عبارة السؤال ، ومردّ هذا الانتقام الى ما كان دُهي به ابن زيدون كما هو معروف من (تهمة اغتصاب المال) الشائنة ، التي اتخذت ذريعة لمتابعته بالقضاء ، وبضجة العيان ؛ وألقت بـه في غيابات السجن ، وأجلته عن قرطبة ، وفيها معقد تمائمه ؛ ومرتع عزّه ، وجميع منى نفسه ، ويقول الأستاذ (٥٢) علي عبد العظيم في هذه التهمة التي قلبت حياته من حال الى حال : إنها كانت « صدمة أليمة على الشاعر ، لأنها متعددة الجوانب ، متشعبة الأهداف ؛ فقد أصابته في مكانته ؛ وجاهه ، كما

(٥٢) ص ٢٠٤ .

أصابته في حبّه المرجوّ ، وفي سمعته الأدبية والخلقية ، وكل هذا يهون الى جوار شماتة الأعداء وتشفّيهم ومما يزيد الصدمات حدة أنها وقعت على رجل مترف ، نشأ في مهاد النعمة ، ، وتقلب في أعطاف النعيم ، واعتاد أن تكون له الصدارة في كل مجال ، وهو إلى هذا رجل مرهف الحس ، مشبوب العاطفة ، تتلقى أعصابه الصدمات مضاعفة » .

ومن دواعي انتقامه أيضاً ما نقله الأستاذ عن صاحب « المعجب » إذ يقول :(٥٣) « كان يبلغه عن بني جهور ما يسوؤه في نفسه وقرابته » ، ويرتب عليه الأستاذ : « أن من المألوف أن يدبر الوسائل للانتقام منهم بما يملكه من تأثير على بني عباد » .

بهذه الدوافع النفسية ينساق ابن زيدون ، ليكون وراء حدث قرطبة ، وكأن هذا كاف لتسويغ الانتقام بمثل تلك (البطشة الكبرى) . ومن الواضح أنها نظرة من زاوية قد لا تتوافق مع رؤية ثانية من زاوية أخرى ، ذلك أن هذه المكاره كلها ، وفيها ما يبلغه عن قرابته في غيبته ، كانت على عهد أبي الحزم ابن جَهْوَر ، لأسباب لا يعنيني تفصيلها هنا ، وقد اختار الله أبا الحزم الى جواره عام ٤٣٥ هـ ، وخلف من بعده ولده أبا الوليد صديق الشاعر ، الذي جازف في حياة والده الرئيس بالإقدام على انتشال ابن زيدون من محنته في جسمه ونفسه وقرابته ، مقدّماً حق صداقة الصديق على جوانب رعاية ما أراده الوالد ، وصدر به حكم الحاكم . ثم لما خلف أبو الوليد بن جهور والده أبا الحزم نجحَ في تقريب ابن زيدون وتقديمه « بين الذين اصطنعهم لدولته » ، وكرمه بالسفارة لدى أدريس (العالي) صاحب مالقة يومئذ ، وبعد الذي كان منه في سفارته العابثة هذه التي عزله عنها ، سرعان ما « عاد الى جميل رأيه فيه ، وصرفه في السفارة بينه وبين رؤساء الأندلس فيما يجري بينهم من التراسل والمداخلة » .

(٥٣) المعجب للمراكشي ، ص ٦٢ ، ط : سلا ـ ابن زيدون للأستاذ علي عبدالعظيم ، ص ٢٨٥ .

وتلك كلها انعامات سجلها المؤرخ ابن حيّان . فالمفهوم أنه فارق قرطبة وهو رضيّ النفس ، رفيع الشان ، وهذا فيما أقدر – هو داعي الرسالة التي وجهها من بلاط المعتضد عباد الى أبي الوليد بن جَهْوَر ، يشكر فيها نعمته ، ويشيد بإفضاله عليه ،والأستاذ نفسه يرجح – وقد أصاب – أن ابن زيدون ما سجن إلا مرة واحدة على عهد أبي الحزم ، ويضعف رواية سجنه على عهد أبي الوليد ابن جهور ، ثم هناك رائية ابن زيدون التي رثى بها أبا الحزم [٥٤] ، ومثلها التي رثى بها أم خلفه ولده أبي الوليد ، ثم أضفْ الى ذلك قصائده فيه بعدَ المحنة ، وأظهرُها في هيئة ما بقي في نفسه من إحنة ، داليته التي يقول فيها :

هل النداءُ الذي أعلنت مستمعُ أم في المنات الذي قدمت منتفَعُ

ومع ما هو مفهوم من أن هذه الأشعار ليست الا صوت المجاملات ، وقصائد جاءت بها المناسبات ، فان من شأنها أن تلطف حقده ، فلا يستحرّ على مدى السنين جمرات ملتهبات .

ويلاحظ أن نص ابن حيان [٥٥] الذي يسجل إنعامات أبي الوليد بن جَهْوَر على ابن زيدون ، قد عنى بتعدادها فقال : « أوسع راتبه ، وجلله كرامة لم تقنعه » ، ثم قال في آخر فقرة من هذا النص في حالة ابن زيدون أثر هذه الأيادي السوابغ : « فاكتسب الجاه والرفعة ، ولم يبعد في ذلك عن التهافت في الرقي لبعد المهمة » . وهذا نص ناطق بأنه فارق قرطبة ، وهو على جاه ورفعة شأن ، وسليم من شوائب الأضغان .

ولعل هذا التهافت على الترقي الذي يعني طموحاً مشبوباً ، وظاهرة عدم قناعة سجلها عليه ابن حيان بلفظها [٥٦] ، مما يتيح القول بأن الأستاذ عبدالعظيم أراد ،

(٥٤) الذخيرة ، القسم : ١ ، المجلد : ٣٦٦/١ ، وما بعدها . ط ١ .
(٥٥) الذخيرة ، القسم : ١ ، المجلد : ٢٩١/١ .
(٥٦) سيقدم لنا الأستاذ علي عبدالعظيم أحد مظاهرها ، حين غضب ابن زيدون لفوز ابن السقاء بوزارة كان شاعرنا يؤمن بانه هو القمين بها .

وهو يوجه دواعي الانتقام ، أن يحلل نفسية شاعر إنسان تجاه محنته ، ولكننا لا نقع تحت ركام أخباره هذه ، ولا نرى من خلال ثلاثين سنة أو تزيد ، قضاها كما رأى الأستاذ في التحريض على المكاره ، ولا نظفر في ذلك القابع وراء (البطشة الكبرى) — كما يرجحون — إلا بمجرد آدمي ليس بالانسان ولا بالشاعر .

فهل يصح أن تتأصل جذور الانتقام في خلد إنسان ، وتظل متأججة زافرة تلهبه بالتحريض والإثارة طوال ثلاثين عاماً أو تزيد ، وأعني منذ تاريخ محنته بالسجن عام ٤٣٢ هـ الى تاريخ « البطشة الكبرى » عام ٤٦٢ ؟

وأي (عاطفة مشبوبة) هذه عنده الشاعر ، وهي التي تأخذ الولد أبا الوليد بوزر أبي الحزم الوالد ؟ .

وكيف يصح من رجل مرهف الحس أن تنطلق من سعيه ، وبعد ذلك الأمد المديد غلاظة « البطشة الكبرى » ، وكأن وقع المحنة ما زال طرياً يرعش في أعصابه ، بعد تصرُّم هذا العهد الطويل ، فيأخذ الشيخ المفلوج وحريمه ذلك الأخذ الوبيل ، وهو رهين الزمانة التي لم يكن له معها حَوْلٌ ولا طَوْل ، ولا بيده عندها نهي ولا أمر ، وهو ، هو نفسه أبو الوليد بن جهور ، خِدْن أبي الوليد ابن زيدون في الخلوات ، وشاب الأمس الذي آل اليه الأمر فتغاضى عن كل ما كان ، ولم يلق أذنه لما تهامس به الناس ، مما لا يتهاود في شأنه أصحاب السلطان ،وإنما رده الى مهاد نعمته ، وأفضل عليه حتى أضاف تَرَفاً الى ترفه .

فأيهما كان وراء(البطشة الكبرى) ؟ أهو ابن زيدون الشاعر الإنسان ؟ أم هو ذلك الحيوان الذي لم يجمله الله برويّة ، ولا بحاسة إنسانية ، وما تغنّى على إيقاع رَوِيّ ولا قافية ؟ !

ويدخل في باب الدوافع النفسية أيضاً ، التي سوّغت بطشه وانتقامه ، ما سبق الأستاذ علي عبدالعظيم بعد نصه السابق ، انسياقاً مع طريقة تعداد الدواعي

والأسباب، وذلك حين قال [٥٧]: ، إن ابن زيدون كان يتمنى أن يصير الوزير الأكبر لأبي الوليد ، ولكن هذا آثَرَ عليه ابن السقاء » . ويعلق الأستاذ على هذا فيقول : « فمن المألوف أن يشترك هو والمعتضد في تحريض عبدالملك بن جهور (ابن أبي الوليد بن جهور وخافه) على الفتك بابن السقاء » .

وأعتقد في الجواب عن هذا أنّ من وجد ضالّته وزيراً أكبر ، ومشيراً أولَ ، على حد تلقيب الأستاذ علي عبدالعظيم ، الذي عزاه لإجماع المؤرخين ، وأن من فضل هوايته في اشبيلية على هواه في قرطبة ، ومن انصاع الى صوت طماحه وشهواته في قول القائلين على حد تعبيره :

يقولون : شَرِّقْ أو فغَرِّبْ صريحة
الى حيثُ آمالُ النفوسِ نِهابُ
فأنتَ الحُسامُ العَضْبُ عُطِّلَ مَتْنُهُ
وعُطِّلَ منه مضربٌ وذُبابُ
وإنّ الّذي أمّلْتَ كُدِّرَ صفوُهُ
فأضحى الرِّضى بالسُّخْط منه يُشابُ
وقد أخلفتْ مِمّا ظننتَ مَخايلٌ
وقد صَفِرَتْ ممّا رجوتَ وِطابُ

وأن من أبدل الله درهَم سفاراته لبني جَهْوَر في قرطبة ، بدينار سفارته ووزارته المثنّاة في اشبيلية ، وأن من تصدر في مجلس كانت لأهل الأدب فيه سوق نافقة [٥٨] ، وتلألأ في خلوات كانت صهباؤها مشرقة ، وأن من امتلأ جوفه بهذه السعادة ، واستغرق قلبه حبه لولادة ، لن يفضل في نفسه – فيما أقدر – ولو

(٥٧) ص ٢٨٥ .
(٥٨) ابن القطان ، بواسطة البيان المغرب ، ٣/٢٨٤ .

مغرز إبرة لطارق الحقد على بني جهور ، حتى يجعل من وُكْدِه التحريض على هدم دولة ، وتشريد أسرة ، والكفر بنعماء وصداقة .

وقد يصح أن يسجل الباحث وهو يتمثّل الأحداث في سير أبطالها ، ويتطلع الى دوافع حركاتهم وسكناتهم النفسية والاجتماعية ، أن يسجل أن أبا الوليد بن جهور ما عدل بوزارته عن ابن زيدون الى ابن السقاء ، لأنه كان يرى في صديقه شاعرنا خلال تلك الظروف نفسها ما كان شاعرنا نفسه يرّاه في الوزير ابن عبدوس من أنه « الساقط سُقوطَ الذباب على الشراب ، المتهافت تهافُتَ الفَراش الى الشهاب » ، وذلك أن أبا الوليد بن جهور كان قد ارعوى منذ حياة أبي الحزم والده عن سهرات لهوه ، وعن أباريقه وكاساته . وفي عهد والده أبي الحزم ، أو في عهده، كُسِرت الدّنان ؛ إيذاناً بتحريم المُدام . وقد كان هذا شعار النزعة الدينية في الحكم ، والرجعة الى طريق الصلاح ، واتخذ مثله في ظروف معينة بالمغرب والمشرق على السواء ، لدواع في سياسة الحكم واحتواء الدّهْماء . والمعروف أن ابن زيدون وأبا بكر بن ذكوان كانا خَدِينَيْ أبي الوليد بن جهور في لذاته ، وفرسَيْ رِهان في حَلْبَة غَوَاياته . وغالت المنية أبا بكر ، وانصرف أبو الوليد ابن جهور الى شؤون الحكم، وتَبِعات العهد ، فلم يَسَع ابن زيدون إلا أن يظهر التوبة والانصياع مع الغاوين التائبين ! ويعلنها في شعره نغمة صوفية ، ولكنها ترشح بدُوار الخُمار ،ورائحة الخمر.وقد رويت له أبيات عابَتَ بها أبا العباس ابن أبي حاتِم بن ذكوان : يقول فيها [٥٩] :

لست من بابة الملوك أبـــا العبـــ

ـــاس دَعْهُمْ فشأنهم غير شانِكْ

---

(٥٩) الديوان ، ص ١٤٨ ، بتحقيق : الأستاذين : كيلاني وخليفة .

ما جزاء الوزيـــر [٦٠] منك اذا اختـ
ـصّك أن تستمرّ في إدمانِكْ
أتـــــراه لا يســتريــبُ لإمــــا
كك ســعد العِراق تحتَ لســانِكْ
قد نهـــانا عن المُدام . انتهينـــا
معَ أنـّا نُـعَـدّ في غِـلمانكْ

ولكل وجهته على كل حال ، فقد أصبح أبو الوليد بن جهور يواجه ظروفاً معتمة بحرب دائرة ، وشماتات سائرة ، وينصرف الى ترتيبات جادّة للسير بشؤون الرعية على وَفْق ما عهدت من ازدهار وصلاح ، وآنست على عهد والده أبي الحزم من سَداد ، فألحّت عليه هذه المواجهات في اتخاذ وزير يشدّ أزْرَهُ ، ويضبط أمره . وما اعتقد أنه رأى في ابن زيدون الصديق ، خِدْن أيام اللذات ، قريناً لذلك اللّهْذَم النافذ في الميدان ، الذي يضبطِ السلطان ، ويحسم عن الدولـة الأطماع ، ويخيف الأنداد ، ويَغيظ الأعداء والحساد ، وإنما كان يصلح لها ابن السَّقّاء . وبتلك المقومات ، وصنه ابن حيان [٦١] وابن القطان [٦٢] ، ودلت أخبار هذا الوزير على جودة استقلاله ، ورجاحة وزنه ، ونصحه المتهالك في عمله وطاعته ، بقطع النظر عن غمزات ابن حيّان ولذعاته في أولياته وبداياته .

والغالب أن ابن زيدون كان متنعماً في غَيابات نفسه بأن جوَّ أبي الوليـد الجديد اليوم غيرُ جوّه بالأمس ، فلا أرَبَ له فيه ، ولو صفت الأحوال ، ولكنّ

(٦٠) لقب «الوزير» من القاب الرؤساء في اصطلاح الاندلسيين ، وقد كان يلقب به أبو الحزم وابو الوليد ، كما أن لقب «الحاجب» لقب به بعض الملوك، والملاحظ ان بني جهور لم يضفوا على انفسهم القابا قبل عبدالملك الـذي لقب نفسه بذي الرئاستين . ولكن الأستاذ علي عبدالعظيم قد درج على ان يطلق لقب الأمير ولي العهد على ابي الوليد بن جهور ، مع أن هذا لـم يلقب به ابو الوليد ، ولا اضفاه عليه مؤرخوه .

(٦١) الذخيرة القسم ١ ، المجلد : ١٢٢/٢ ـ القسم ٤ ، المجلد ١٨٧/١ .

(٦٢) البيان المغرب ٢٥١/٣ .

دالّة شاعرنا على الدولة – كما يفيد شعره –، ومركز بيته في قرطبة ، وطبقته الفكرية ، كانت تصور له ابن السقاء غير أهل لها ، وما هو بالذي يستطيع منازلته في ميدانها .

وأحسب أن إلقاءه عصا التسيار ببلاط بني عباد الرافل في اللألاء ، والمنير له طريق العلياء ، قد كان المآب الطبيعي الذي جعل حدّاً لذلك الصراع بين ما كان يعتقده في نفسه وما كان يتصوره عن وزير أبي الوليد الجديد . فمجالس عباد الأدبية وسهراته الليلية ، لم تكن تصلح إلّا له ، ولم يكن يصلح إلّا لها . ولا غَرْوَ اذا ألحّ المعتضد عباد في استدعائه، وتغاضى عن بادرة قوافيه في ابن الأفطس ، التي غضت من عليائه ، فلم يتوانَ عن جذبه ، كما يقول ابن حيان ، الى كنفه ، « وصار من خواصه وصحابته ويجالسه في خلواته » .

واذا كانت نقمة ابن زيدون على الجهاورة قد أكلت معظم عمره الذي قضاه متربّصاً بهم الدوائر[٦٣] ، حابكاً للدسائس ، كما ظهر للأستاذ علي عبدالعظيم، فان الشيخوخة – كما نرى – قد تهجمت على بقايا عمره ، وهو يستقبل منصبه الذي أقر عليه إثر مبايعة المعتمد ، وأوجاع المرض أخذت تلمّ به ، وتهدّ من كيانه ، ونِصالُ كيد الأعداء والمنافسين غدت تنهال عليه ، فتسلبه هناءةَ باله ، وراحة نفسه . ومن الواضح أن تكون هذه المثبطات على اختلاف أنواعها ، قد قعدت بالشيخ عن مجاراة الخاصة المقربين في العهد الجديد ، وهي مظاهر تنقل حديثنا من جوّ الى جوّ ، وتسير بنا قصداً نحو :

عهد المعتمد ، وتجاه المنطلق الثالث لمعتقدات الأستاذ علي عبدالعظيم التي يثبت بها تأثير ابن زيدون في المعتمد ، على غرارِ محاولة إثبات تأثيره في والده المعتضد .

(٦٣) ابن زيدون ، للأستاذ علي عبدالعظيم ، ص ١٨٣ .

فالأستاذ يرى ـ كما سلف ـ أن المعتمد قد « أقر ابن زيدون في منصبه» [٦٤] الذي كان يتيح له التوجيه والتأثير ، وهو منصب الوزير المثنّى الوزارة ، والمستشار الأول بإجماع المؤرخين ، على حد قوله . ويرتب الأستاذ على هذا أن [٦٥] من الطبيعي أن لا يقدم المعتضد وابنه المعتمد على أمر خطير ، كفتح قرطبة ، إلا بتدبير من ابنها ابن زيدون » .

ويقول قبل ذلك بصيغة أخرى [٦٦] : « إن الأميرَ كان بحاجة الى الشاعر ، ليستفيد بحنكته وخبرته وتجاربه ، وليتم التدبير الذي بدأه لفتح قرطبة » .

ولعلنا لا ننسى أن الأستاذ قد جلب في الموضوعين نصين للدكتور فيليب حتي ، أحدهما الذي يقول إن المعتضد : « ولاه رئاسة الوزارة ، وإمارة الجيش [٦٧] » وقد سبقت الإشارة الى ضعف الحجة في هذا المنقول المعتدّ به عند الحديث عن المناصب التي تمهدت في رحاب المعتضد لابن زيدون .

والآخر هو الذي جاء فيه قوله : « وكان بإشارة ابن زيدون وتأثيره أن أرسلَ المعتمد جيشاً على قرطبة ، فانتزعها من بني جهور [٦٨] .

(٦٤) انظر نص الأستاذ كاملا في صفحة سالفة ، وراجعه في كتابه : (ابن زيدون) ، ص ٢٨٦ .
(٦٥) كتاب ابن زيدون ، ص ٢٨٦ .
(٦٦) المصدر السابق ، ص ٢٨٣ .
(٦٧) تاريخ العرب (مطول) ، ٣/٦٦٤ .
(٦٨) تاريخ العرب (مطول) ، ٣/٦٦٤ . ومن المستغرب ان يعتد الأستاذ علي عبدالعظيم بتأييد الدكتور فيليب حتي له ، وفي تاريخ العرب (المطول) نفسه ، مع أن اعلاما سابقين قالوا بهذا منذ اكثر من ثلث قرن ، ومن بينهم شيخ العروبة الأستاذ أحمد زكي (باشا) رحمه الله ، في محاضرته في ابن زيدون الشهيرة . اما كتاب الدكتور فيليب حتي في تاريخ العرب موجزه، ومطوله، فلا يعد مرجعا اندلسيا، كما لايعد الدكتور فيليب في هذا الموضوع اخصائيا ، وكتابه المطول باندلسيات ومشرقياته وبتعدد اجزائه يعد مختصرا بالنسبة الى الابحاث الخاصة المستوعبة ، التي يستأنس بها في مثل هذا الشأن .

وهذه هي قولة الأستاذ علي عبدالعظيم ، وجمهرة الباحثين المحدثين من عرب ومستشرقين ، وهي موضوع ما أسلفت من بحث وتعليق على جملة النصوص والاعتبارات والاستنباطات التي ارتكز عليها جواب الأستاذ عن السؤال الأصيل .

ولكن يلاحظ أن ظواهر العلل الجسمية والنفسية التي أصبح ابن زيدون ينوء تحتها منذ أقره المعتمد بن عباد في منصبه ، أو قبل ذلك بقليل أو كثير ، تعدّ من الظواهر التي تتصل اتصالاً وثيقاً بما نحن فيه .

وإن الفصل المهم الذي خلفه لنا شيخ المؤرخين ابن حيّان عن هذه الظواهر ، ونقله في الذخيرة ابن بسام [٦٩] لينير للباحث المضمار ، فيسير قُدُماً على هذا المنوال ، لأنه يقرب من دائرة الجواب المنشود عن السؤال : هل كان ابن زيدون حقاً يقبع وراء (البطشة الكبرى) باسم المعتمد بن عباد ؟

وقد نقل الأستاذ علي عبدالعظيم نفسه بعض الشذرات من هذا الفصل بحروفها ، جرياً على منهاجه في الضبط ، واستشهاداً لما أبداه تحت عنوان : « خاتمة المطاف » [٧٠] .

وإن التزارد مع الأستاذ على هذا المنهل ، قد جعلنا نتمثل برؤية واحدة مشخصات حالة ابن زيدون الجسمية والمعنوية في هذه المرحلة من حياته ، ونستوعب الظروف المحتفة بوضعيته في البلاط ، ودواعيها يومئذ ، ومبلغ تأثيرها في مضاعفات دائه . وهكذا أرى معه وهو يتحدث على هامش مهمة أعنتت ابن زيدون في آخر أيامه ، وسنسمع قصتها بعد لحظات : « أن المرض [٧١] والكهولة ، والآلام المعنوية ، مضافة الى مَشاقّ السفر ، وفداحة المهمة ، والهواجس النفسية ، تكاثفت جميعها عليه ، فتركت آثارها العميقة عليه » .

(٦٩) القسم : ١ ، المجلد ٣٥٤/١ وما بعدها .
(٧٠) كتاب ابن زيدون ، عصره وحياته وادبه ، ص ٢٨٦ .
(٧١) المصدر نفسه ، ص ٢٩٠ .

والمفروض تجاه تماثل الرؤية ، وأخذ الأستاذ بزمام الأحداث ونزوعه في هذا السياق الى تحليل ما ينقله من شذرات عن نص ابن حيان ، أن يستشعر ولا ريب طائفاً من الشك يلمّ به حول قابلية ابن زيدون ، وأهليته الصحية في نظر صاحب الأمر ، حتى يعهد اليه بتسيير الشؤون ، فضلاً عن الشورى وتدبير أمر الفتوح وهو شك أراه مائلاً ملحّاً ، ولا أدري كيف يصح التفلّت منه . والأستاذ نفسه ذهب معدداً أعراض تدهور حالة ابن زيدون الصحية والمعنوية . تعداداً تسنده نصوص المؤرخ شاهدَ الأحداث. فلا يسع الباحث الا أن يلتفت الى تلك الأعراض، التفاتته الى صلة ظروفه بها في معترك دسائس البلاط ، ويعير مدى استغلاظها وزمانتها ، ومبلغ تأثيرها ، وتحديد بداياتها التي أخذت تستفحل ولا ريب شيئاً فشيئاً بمضاعفات أودت بحياة ابن زيدون في خاتمة المطاف .

وإن فقرات ابن حيان لَتُغري بالسير في هذا المعنى، إنْ بالنسبة للبدايات أو للنهايات .

وانسياقاً مع هذه النظرة من البداية ، وعلى هدى فقرات المؤرخ ابن حيان ، نجعل نصب العين أن صاحبنا ابن زيدون لم يمتدّ به العمر منذ تاريخ مبايعة المعتمد خلفاً لأبيه في غرة جمادى الأولى من عام ٤٦١ هـ ، غير عامين وشهرين وخمسة عشر يوماً بكامل التحديد ، إذْ كانت وفاة ابن زيدون في ١٥ شهر رجب عام ٤٦٣ هـ [٧٢] .

واذا كان الباحث لا ينسى أن المعتمد بن عباد قد أخذ صدر دولته بناصر ابن زيدون حينَ دسّ خصومه قصيدة تزين له الإيقاع به [٧٣] ، وأنّه رد كيدهم في نحورهم ، وأبقاه على سَنِيِّ رتبته ومكانته ، كما تسجله ألفاظ ابن حيان والفتح ابن خاقان في ترجمته ، فان من الملاحظ أيضاً بإزاء هذا أن عباراتهما لا تعني

(٧٢) الذخيرة ، القسم ١ ، المجلد : ١/٣٥٥ .
(٧٣) قلائد العقيان ، ط : باريس ، تصحيح : الحرائري، ص١٥ـ٨٩.

بمنطوقها ولا بمفهومها ما رتبه الأستاذ علي عبدالعظيم على حقيقة ما ثبت من اقراره في منصبه [٧٤] . فهو يخالف ما وضحه المؤرخون من مفهوم هذا الاقرار في المنصب ، وقد قال ابن حيان ناقلاً ما يروج بين أهل الزمان تعليقاً على إقرار ابن زيدون في منصبه بالبلاط[٧٥] : « ان استمساكه بعليّ مرتبته بعد مختصة المعتضد بالله كان من المعتمد على الله رعاية لخصوصية ابنه به ، يغص باستمرارها ثقناه المختصان به : الحظيّان لديه : المستهمان لخاصته : ابن مرتين : وابن عمّار » .

ويزيدنا الفتح ابن خاقان [٧٦] توضيحاً لحقيقة منصبه على عهد المعتمد ، فيقول : « ولما مات المعتضد رحمه الله ، وارتفع في أمره ما ارتفع ، راعى المعتمد مَوَاتَهُ التي توسل بها ، وأبقاه جليساً وسميراً ، وسقاه الصفح سلسالاً نَميراً » .

فمهمة المنصب كما اتضح ، لا تتجاوز عملياً في أذهانهم وفي أقلامهم المجالسة والمسامرة ، في حين يلاحظ أن المؤرخين قد عنوا في معرض الترجمة لمنافسه أبي بكر بن عمار بزيادة ذكر الوزارة والاستشارة مضافةً الى المجالسة والمسامرة ، وما كان صنيع المؤرخين ليخلو من دلالة .

فالمفهوم من ابن حيان وابن خاقان أن منصب ابن زيدون على عهد المعتمد إنما كان منصباً شرفياً ، رعايةً لماتّته ، وهي ماثلة بأقدميته في الخدمة وفي أستاذيته ، وفي الجانب الفكري من مقوّماته ، وأنه بهذا أقر في البلاط كشعار لعهد المعتضد الماثل في أذهان أهل الزمان بالنصرة والسلطان .

وأحسب أن قصة المهمة التي أسندت اليه في اشبيلية ، وهو يومئذ مع المعتمد ابن عباد في قرطبة ، من شأنها أن تمد الباحث بتوضيح سرٍّ ظاهرة ندبه لهذه المهمة ، مع ما هو معروف عنه يومئذ من تدهور حالته الصحية ، فلنستمع اليها

---

(٧٤) ابن زيدون ، للأستاذ علي عبدالعظيم ، ص ٢٨٦ .
(٧٥) الذخيرة ، القسم : ١ ، المجلد : ٣٥٥/١ .
(٧٦) قلائد العقيان ، ط : باريس ، ص ٨٩ .

على لسان شيخ المؤرخين ابن حيان ، كما ينقله عنه ابن بسام: [٧٧] قال : « وفي يوم الاثنين لثلاث عشرة ليلة خلت من ذي الحجة سنة اثنتين وستين وأربع مئة ، سار الحاجب سراج الدولة عباد بن محمد (المعتمد) الى اشبيلية ، الحضرة الأثيرة ، لمطالعتها وتأنيس أهلها من وحشة خامرت عامتهم ، من أجل عدوان رجل منهم على يهوديّ : جاء لأمرجة السوق عندهم ، ماراهُ في بعض الأمر : فزعم أنه اسب شريعة ، فبطش به المسلم وسط السوق ، وجرحه ، وحرك عليه العامة ، فقبض عليه صاحب المدينة عبدالله بن سلام واعتقله . فكان لعامة الناس في إنكاره حبسه كلام وإكثار خُشِيَ وَبالُه . فخاطب السلطان بقرطبة يعرّفه ما كان منه ويستأمره في شأنه ، فعجل إنفاذ ولده الحاجب سراج الدولة الى اشبيلية في جيش كثيف ، من نخبة علمائه ووجوه رجاله ، لمشارفة القصة ، والاحتياط على العامة ، فغدوا معه وسط هذا اليوم ، وأنفذ معه ذا الوزارتين أبا الوليد بن زيدون أحد الثلاثة كابري وزرائه المثنّاة وزراتُهم ، عمد دولته ، ألزمه النفوذ مع الحاجب على بقية وعك كان متألماً منه ، ولم يعذره في التوقف من أجله ، فمضى لِطِيّته ، مسوقاً الى منيّته ، وخلف ولده أبا بكر الفذ الوزارة ، المرتسم بالكتابة وراءه ، سادّاً مكانه بالحضرة ، فأقر فيها أياماً ، ثم أمر بالمسير وراء والده لأمر كلفه ، أعجل بالانطلاق له ، فمضى بعينه غداة يوم السبت لثمان خلون من المحرم سنة ثلاث وستين بعدها . فخلت منهم منازلهم بقرطبة وصيرت الى سواهم ، فتحدث الناس بنبوّ مكان الأديب ابن زيدون لدى السلطان ، وأن استمساكه بعليّ مرتبته . بعد مختصة المعتمد بالله ، كان من المعتمد على الله رعاية لخصوصية ابنه به . يغص باستمرارها ثقاة المختصان به : الحظيان لديه ، المستهمان لخاصته : ابن مرتين وابن عمار . الى أن عملا في إبعاد ابنه الرقيب بعده ، فأمضى خلفه ، فعندها استساغا علّته . واستهما مكانه ، واحتويا على خاصة السلطان وتدبير

(٧٧) الذخيرة ، القسم : ١ ، المجلد : ١/٣٥٤ وما بعدها .

دولته ؛ ولكل دولة رجال ، ولكل مكتف أبدال . ولم يطل الأمد بابن زيدون — رحمه الله — بعد لحاق ابنه به ، ووجدانه إياه متزايداً في مرضه ، نازحاً عن ألافه ، على جهده في استدعائها على انتهاء المدة ، وانتهاك القوة . فاستقرّ به وجعه الى أن قضى نحبه ، وهلك بدار هجرته اشبيلية صدر رجب سنة ثلاث وستين ، فدفن بها مشهوداً مفتقداً » .

فهذه القصة تعرض علينا ابن زيدون عند تكليفه مهمة اشبيلية ؛ في حالة مرض ، عبر عنه ابن حيان « ببقية وعك كان متألماً منه » ، ومن ظواهره التزايد ، ونهك القوة ، واستقرار الوجع .

وهذه الأوصاف والأعراض تفيد أن علته لم تكن وعكاً ملماً ، وإنما هي بحسب أوصافها ، وبحسب ما انتهت إليه من (البطشة الكبرى) بصاحبها ؛ نوبة ضارية ، لها سوابقها ؛ وينمحص هذا بعبارة ابن حيان في القصة التي يفهم منها أن علته كانت معروفة بادية للناس ، ومن النوع الذي يعذر المبتلى بـه للتوقف لما يناط به من مهمات .

وكل هذا يتيح القول بأن أبا الوليد بن زيدون كان قبل تاريخ إنفاذه الى اشبيلية ، متدهور الصحة ، وعلى نحو يقرب قليلاً وكثيراً من تلك الصورة السالفة التي عرضها الأستاذ علي عبدالعظيم منوطة بمرحلة المهمة في اشبيلية ، التي كانت آخر مراحل عمره أو « خاتمة المطاف » بحسب تعبيره .

ولكن يمكن ، على أساس ما توضح من أوصاف ، أن نتمثله في تدهور حالته الصحية ابتداءً مما قبل مبايعة المعتمد عام ٤٥٠ هـ . وإذا أضفنا الى هذا أنه مُنِيَ صدر دولة المعتمد بسعاية الأعداء ، أصحاب القصيدة التي دسوها في يد المعتمد ، لإبعاده عن رتبته [٧٨] ، بل الإطاحة برأسه ، ثم بكيد المنافسة الذكية الماكرة من ابن عمار ، وابن مرتين ، فان هذا يتيح القول بأن العلة النفسية أخذت تنشب

(٧٨) قلائد العقيان ، ط : باريس ، تصحيح : الحرائري ، ص ١٥ ومابعدها .

أظفارها في جسمه منذ صدر أيام المعتمد ، واذا هي تتألب عليه مع شيخوخته ودائه ، فبدا معها فاقد الاستعداد والقابلية للمشورة والنقض والابرام في الشؤون ، فضلا عن الاضطلاع بأمر الفتوح ، وذلك أصل اقراره في منصبه على مجرد الوضعية الشرفية ،والمكانة الرمزية ، كما تلمح هذه الظروف .

ويمكن أن نتصور وقع الهواجس على نفس الرجل المريض ، ونحن نتصور هذه المنافسة من ابن عمار ، وقد استكانت لها مكانة (المشير الأول ! ورئيس الوزراء !) ، وهانت حتى رأيناه — كما يفهم من بين سطور القصة — متسخراً في هذه المهمة بمشيئة قاهرة من ابن عمار ، كما يسخر الصغار من الكبار ، وإنه ليتاح للباحث على هدي ما يستخرج من افادات ابن حيان أن يذهب كل مذهب في توضيح مقاصد ابن عمار الماكرة في هذه اللعبة . وقد لاحظ الأستاذ علي عبدالعظيم نفسه [٧٩] أن المهمة كانت « ملغومة » من قبل ابن عمار وابن مرتين — وذلك حين أبدى : « أن هدفهما كان إبعاده بكل الوسائل ، فان أخفق في مهمته ، وجدا الفرصة للكيد له عند الأمير ، وان نجح فلن يكسب مجداً جديداً يضيفه إلى أمجاده ، على أنه من السهل نسبة هذا النجاح الى ولي العهد سراج الدولة . وسلبه من ابن زيدون » .

ولا ريب أن هذا كان مقصوداً كما يرى الأستاذ . والذي يحز في نفس ابي الوليد مثل هذا ، أكثر ، وينهكه بعلة نفسية ، ويهيج آلامه الجسمية ، أن عنصر الاستهانة والسخرية واضح في هذه اللعبة التي قصد بها ابن عمار إبراز أبي الوليد في حقيقة مكانته ومركزه في العهد الجديد ، وهي موضع الضعف القاتل عند أبي الوليد . إذ المفروض في مثله ممن أصيب بقدره ، وانتهى الى نحو من وضعيته وحاله . أن ينتظر من ولي الأمر أخذ العصا من الوسط ، ما دام هواه في ابن عمار ، وحظوته الطاغية لديه قضاء مقدر ، ولكنه ناوله العصا ، ليلهب بها قفاه ، وفتح له

(٧٩) كتاب ابن زيدون ، عصره وحياته وأدبه ، ص ٢٨٩ .

مسمعيه على المصراعين، وانساق لتوجيهاته التي وجه بها انفاذ ابن زيدون في المهمة بما شاء له هواه ، ونفذه مولاه ، فكانت بذلك سخرية ذات حدين ، بانسحابها حتى على وَلي الأمر ، الذي جلاه الماكران أمام الملأ طوع اشارتهما في كل قليل وكثير ، وبالنسبة الى كل كبير وصغير .

تلك هي ألوان الهواجس التي كانت تهد من كيان ابن زيدون ،لتصبح بعدُ حقائق تشبّحت في نفوذ ابن عمار المطلق الذي زعزعه من مكانته ، وتحكم في مصيره ومصير أسرته (٨٠) .

وكل هذا يحمل على استبعاد ما صرح به الأستاذ من أن المعتمد كان في احتياج الى تجربة ابن زيدون وخبرته في هذه الظروف والأحوال . والذي تسلم اليه إفادات القصة المذكورة أن ابن زيدون قد أصبح باستغلاظ علته الجسمية والمعنوية مع توالي الأيام ، على غير استعداد وأهبة ، حتى يلجأ اليه المعتمد في تدبير أو مشورة ، ولا سيما حينما دهم المأمون بن ذي النون صاحب طليطلة عاصمة الخلافة قرطبة ، بإرسال كتائبه عليها (في شعبان ٤٦٢ هـ ـ ١٠٧٠م)(٨١)

(٨٠) وهذا أصل الوحشة التي استحكمت بين ابي‌بكر بن عمار، وابي بكر ولد أبي الوليد بن زيدون ، الذي ادناه ابن عباد ورقاه بعد وفاة والده في الحال . ويبدو أن هذه السرعة في ادنائه والاستبصار ـ بحسب تعبير ابن حيان ـ في احضاره ، بعد الذي عرفنا من نبو مكانه ومكان والده ، انما ترضى بها المعتمد عواطف اهل قرطبة الذين ربعوا لما حل به ، وساءهم ـ كما يبدو من نص ابن حيان ـ ان يلزم بالنفوذ مع الحاجب سراج الدولة الى اشبيلية في مهمته ، على ما به من مرض يقضي اعفاءه رحمة بـه ، واشفاقا من اجهاد قد يدنيه من اجله ، ولكن المعتمد حمد سيرة الابن في عمله ، ورضي بلاءه فيما ناطه به ، فاجتباه ، وجمع له بين الوزارة واعاظم خطط الحضرة ، كما هو معروف من الشذرات المعرفة به .

(٨١) ان تاريخ ارسال المأمون بن ذي النون كتائبه على قرطبة محدد بهذه السنة (٤٦٢هـ/١٠٧٠م) ، في جميع المصادر من غير خلاف . ومعلوم ان استيلاء المعتمد بن عباد على قرطبة جاء ردا على مبادرة المأمون اليها ،

وأعني قبل تمام أربعة أشهر من تاريخ مهمته في اشبيلية ، التي رأيناه عندها منهوك الصحة ، غير قادر على مشاق السفرة ومعاناة النقلة . والمعروف من صريح جميع المصادر أن هجوم ابن ذي النون على طليطلة قد صدر فجأة ، وعلى غِرّة ومبادره ، للظفر بها في السباق الذي كان مستحرّاً بينه وبين العباديين عليها ، وقد عرفنا من صفحة سابقة ، أنه اغتنم فرصة موت المعتضد عباد ، وظروف بداية عهد المعتمد ، فأرسل جيشه غِرّةً عليها ، واستولى على « حصن المدور » في أرباضها .

وقصة (البطشة الكبرى) كما سمعناها من رواية مؤرخ العصر ، توضح لنا أن أخذ العباديين بناصية قرطبة ، وارتداد جيش المأمون عنها ، لم يكن الحسم فيه لمعركة فاصلة ، أو نِزال ، أو للتدابير والدسائس التي كان يحركها المعتضد ، أو بتخطيط من ابنه المعتمد ، وإنما كان الحسم في ذلك لبديهة مطاوعة ، جردت سيف الغدر والختل في لحظات ، وكسبت الموقف في جولات خاطفات .

نعم ، قد يصح أن يستشار الشيخ المريض في طوارئ الأحداث ، ولا سيما

=

ولا ريب ان ذلك سيكون في سنة ٤٦٢ هـ نفسها . ولأجله فما ورد في طبعات تاريخ ابن خلدون (انظر منها المرية ، وانظر : ج ٤/٣٤٤ ، ط : دار الكتاب اللبناني بيروت) . من تحديده بسنة احدى وستين واربع مئة؛ يعتبر وهماً لا غبار عليه .

ويلاحظ عند ابن خلدون ان قصة خلع عبدالملك بن جهور ، واستيلاء عسكر بني عباد على قرطبة في السنة المذكورة قد اختلطت في المطبوعات بقصة استيلاء المأمون عليها ، الذي وقع بعد ذلك سنة ٤٦٩ هـ .

ونفس ما ورد غلطا في تاريخ ابن خلدون عن تاريخ قيام الدعوة للعباديين لأول مرة بقرطبة عام ٤٦١ هـ ، قد ورد كذلك في جزء الأندلس من كتاب أعمال الاعلام لابن الخطيب ، وسواء في طبعة الرباط ، ص ١٧٥ ، أو في طبعة بيروت ، ص ١٥٠ ، وهو في كتاب ابن الخطيب مجرد تحريف من المصحح أو الطابع في الطبعتين ، وذلك ان ابن الخطيب قد سجل في (ص ١٤٩ ، طبع : بيروت ، وص ١٧٤ ، ط : الرباط) : ان المأمون بن ذي النون تحرك الى قرطبة سنة ٤٦٢ هـ ، فمن الواضح عند ابن الخطيب نفسه ان قيام الدعوة باسم العباديين ـ كما اشير ـ بعد ابعاد جيش المأمون قد كان في سنة ٤٦٢ هـ نفسها .

اذا كان معنياً بها ، كصاحبنا فيما يقال . ولكن الحسم في عملية فتح قرطبة قد كان — كما عرفنا — من عفو الساعة ، ومبادرة قوبلت بمثلها ، وممن كان في عين المكان ، وحومة النِّزال ، ومع أول لحظة في الزمان ، وعلى أهبة القرار لترجيح أنشوطة الختل والخداع ، على تفويق سمر الأسَل ، والطعان ببيض الصِفاح ، وعلى إلْباس الحماية والدفاع لَبُوس الانتزاء والاحتلال في الحال ، من غير انتظار أوامر أو توجيهات ، وما كان لمن في مثل حالة ابن زيدون الصحية أن يأخذ المبادرة الذنونيّة بمضاء تلك البديهة الأسطورية .

ولا ننسَ أن بدائه الأشعار ، والمكايدة بنقائض القصائد وغمزات الأشطار ، ليست كبدائه المضايق التي تتحكم فيها النظرة العجلى . والتدبير الخاطف لإراغة الفرصة ، ولن تطاوع البديهة في هذا غير أصحاء النفوس والأجسام .

واذا كان الوزير الشاعر المنهوك الجسم والنفس يبدو في بعض قصائده على عهد المعتمد هيكلاً قويّ الأسْر ، موفورَ الاستعداد النفسي والجسمي لمواجهات ومصاولات الخصم ، فما تلك الا اشراقات باهرة تطالع القارئ في بعض قصائد هذا العهد ، وتظهر ابن زيدون في عدة الكُفاة ، وصولة الكُماة ، وفي جَهارة منطق الايفاع ، وليست الا التماعة الفتيل ، وهو يترنح بالشعلة الأخيرة نحو نهايته في قرارة القنديل .

وكم للشاعر من جولة وصولة من هذا القبيل ! فقد قال من مرثيته في المعتضد وهو يخاطبه [٨٢]:

وانّ مماتي لم يضعه محمّـــد
خليفتك العَدْلُ الرِّضا وابنك البَرُّ
وأرغم في بِرّي أنوفَ عِصـــابة
لقاؤُهُمُ جَهْمٌ ، ومنظَرُهُمْ شَزْرُ

(٨٢) قلائد العقيان ، ط باريس ، تصحيح الحرايري ، ص ٨٩ .

اذا ما استوى في الدَّسْت عاقدُ حَبْوَةٍ
وقام سِماط حافلٌ ، فَلِيَ الصدرُ

ومن هذا القبيل قصيدته في مدح المعتمد على نفس قافية القطعة التي راجع بها المعتمد قصيدة خصوم ابن زيدون يوم جاشوا به إثرَ وفاة المعتضد ، فعمدوا (٩١) الى دس قصيدة في يد المعتمد : « أغروه فيها بنكبته ، وأروه الرشاد في هدم رتبته » ، وفي مطلعها يقول الشاعر :

الدهرُ إن أســأل فصيح أعجم ... يعطي اعتباري ما جهِلت فأعلَمُ
واذا الفتى قَدَّرَ الحوادثَ قَدْرَها ... ساوى لديه الشهدَ فيها العلقمُ
واذا نظرت فلا اغترار يقتضي ... كُنْهَ المآل ولا توّقٍ يعصـــمُ
كم قاعد يحظى تعجل حظـــه ... من جاهد بصل الدروب فيحرمُ
وأرى المساعي كالسيوف تبادرت ... شأو المضاء فمنثنٍ ومصمّـــمُ
ولَكَمْ تسامي بالرفيع نِصابُهُ ... خطراً، فناصَبَهُ الوضيع الألأمُ

وفيها يقول :

قل للبغاة المنتضين قِسِيّهُمْ : سترون من تُصْميه ِ تلك الأسهُـــمُ

وهي قصيدة بادية الصِّيال ، وتعدّ بالنسبة الى اختيها (المدسوسة والمعتمدية) من الطوال ، مما يوحي أن طول النفس فيها مقصود لذاته ، كما يقول ابن رشيق في مثله ، ولأنه مطية الإرهاب ، ووسيلة لإظهار الطاقة على افناء الأنفاس بعد الأنفاس ، وهو شأن المنبهر الذي يستخرج القوة من الضعف . ليظهر أنه ما زال صاحب أيْدٍ وشباب ، واستعداد للاضطلاع بالمهمات .

ومن أبياتها التي تشف عما قصد ، وتشير الى تعلقه بذلك الغرض ، بالرغم من الكبرة والمرض ، قوله فيها :

(٨٣) انظر القصة في قلائد العقيان ، ط : باريس ، ص ١٥ وما بعدها . وقد أورد الفتح القصيدة المدسوسة على المعتمد ؛ والقطعة التي رد بها المعتمد عليها ، ثم قصيدة ابن زيدون في مدح المعتمد .

لي منك ، فَلْيَذُبِ الحسودُ تلظّياً ،
لطفُ المكانة والمحلُّ الأكرمُ
وشفوف حظّ ليس يفتأ يجتلى
غضّ الشباب ، وكلُّ غضّ يهرَمُ

والبيتان يَشِيان بحقيقة تدهور حالته الجسمانية والنفسانية ، وبالخشية من مآل رتبته ومكانته الوزارية ، فنراه في البيت الأول يتطلع الى ابقاء ما كان على ما كان ، وفي البيت بعده ينحو منحى أبيات الرثاء ، — وكم لها من نظير — فيعنى بتقرير شفوف حظه، في عبارة بنيت على كلمتي غض الشباب، وأردفهما في الحال بأن كل « غضّ يهرم » ، وهذه أشبه بكليات الحكم ، التي واجه بها السامع ، ليدرأ عن ذهنه طارئ الدهش مع الشيخ العليل ، هامة اليوم أو الغد ، يعزم المصاولة ، ويتشبث بالتصدر والرياسة .

فلا ريب أن ما عراه من هزة انتصاف المعتمد له من خصومه بتبديد سعايتهم ، وكفّ ألسنة كيدهم ، وبإلجامهم بمراجعة شعرية حلت ما انعقد من بغيهم ، قد أمدته بالنفس ، وفسحت له في الرجاء ، فالتمعت في شعره هذه الاشراقة التماعَ ذلك الأمل الذي سَرْعانَ ما خبا ومرض باستفحال مرض صاحبه ، وانتكاس عافيته ومكانته .

وألْفِت النظر ، ونحن في معرض استعراض تلك التتف من شعره ودواعيها ، الى أن ديوان ابن زيدون لم يرد فيه بيت واحد من الشعر في هذه الحادثة ، كما لم يرو عنه في ديوان من دواوين الأدب ولو مجرد انشاد في هذا الباب ، وهو في الوقت نفسه ذلك الوزير الشاعر الذي يرجع الأستاذ علي عبدالعظيم أنه ظل ثائر النقمة على « الجهاورة » طَوَال عمره في حضرة العباديين ، والذي « ادخره المعتضد لفتح قرطبة » ، فجعل وُكْدَه أن « يؤجج » فيه الرغبة ، و « يحرضه » آونة بعد أخرى ، ويحوك الدسائس لإثارة العصبية السلالية ؛ وللايقاع بصاحب « قرمونة » (والفتك بابن السقاء) وزير الجهاورة ، وان المعتمد — قد كان لمّا

ولّي الأمر – بعرف خبايا نفسه ، وأن نقمته على الجنهاورة ما زالت تستطيل على مشاعره ، فيعمد الى استغلالها عازفاً عن سعاية الساعين به ، وذلك « للاحتياج اليه في « تحقيق حلم أبيه » ، « فيتم له التدبير الذي بدأه » « ويستعين به » ، « وبإشارته وتأثيره أرسل المعتمد جيشه . فانتزع (قرطبة) من بني جهور » ، وأن الوزير الشاعر الذي كان أيضاً « وراء كل تدبير » في هذا السبيل ، (بحسب عبارة جامعة للأستاذ علي عبدالعظيم) هو الذي قبع بمقتضى هذه الإفادات وراء أعمال الغدر والخيانة والختل ؛ ومروعات السلب والنهب في تلك (البطشة الكبرى) ويومها الأسود .

كيف يصح أن يقال هذا ؟ وكيف صح أن يدخل قرطبة مع المعتمد منتصراً ظافراً بحلم وأمنية عمر العباديين ، وبثمرات جهد تدابيره على اختلاف وجوهها مدى سنين وسنين ؟ ثم ، بعد كل هذا ، لم تجش قريحته بالغناء لهذا الانتصار الذي من شأنه أن يحيي مواته ، ويستأصل داءه ، ويجلو عنه كرب مكر المنافسين ، وكيد الكائدين .

وإذا كان هناك من يتمثل في هذا المقام أن وطأة المرض على ابن زيدون قد عطلت فيه القريحة ، وشلّت منه اللسان . فأقوى القلم ، بأصفى البيان ، فليذكر أن من شأن مثل هذا الحادث بالنسبة الى تاريخ المملكة العبادية ، وأعمال شاعر مصرها . « ومستشارها ، وكبير وزرائها ! ! » أن يخرج الحي من الميت ، ويفجر الزلال من الصلد ، ويخلق لحظة الشعر في لحظة السياق ، بين مضايق تصاعد الأنفاس .

وما زلنا نذكر قبل صفحات دعاء الشيخ أبي الوليد بن جهور ، منكوب (البطشة الكبرى) . وقد كان دعاؤه نفثة شعرٍ صُراح . انبعث من شق مائل ، وشِدْق مفلوج ، وريقٍ سائل ، والدنيا من حوله ظلٌ زائل .

واذا أمكن أن يقال إن الصادر عن ابن زيدون من هذا القبيل لم يقع الينا ،

شأن شعره في نكبات زمانه الكبرى ، وكوارث الجزيرة الأولى ، تلك التي نمت على تخطيط « فرذلند » المبيت لتطويق ممالك الجزيرة ، وذلك منذ انسياح الجيوش النصرانية ، في مملكة بطليموس ابتداء من مدينتي « بازو » و « لميقة » (٤٤٩هـ ـ ١٠٥٧م) الى فاقرة احتلال (٤٥٦ هـ ـ ١٠٦٤ م) الردمانيين (النورماندیين) بمعونة أهل غاليش (الفرنسيين) لمدينة « بربشتر »[٨٤] الى الفتح الكالح الدامي الذي حققه الطاغية في نفس العام باستيلائه على المدينة الحصينة « قلمرية »[٨٥] (كويمبرا) . وهو تساؤل وارد من أول نظرة ، ولكن الواقع هو أن قضية الضياع والاختفاء مفروغ منها سواء بالنسبة الى هذه النكبات أو بالنسبة الى شعر بكاء المدن الأندلسية بوجه عام . ولكن الأمر بالنسبة الى شعر ابن زيدون لا يصح أن يقال فيه : إن ديوانه الكامل ضائع ، فهو غير كامل في نسخه المعروفة التي استخرج من بعضها المطبوع ، وان بعض قصائد الشاعر لم يرد في الديوان منها غير مقطعات من هيكل قصائده الضافيات . فمن الجائز على هذا أن تكون قضية فتح قرطبة متروية بين الضائع من شعره . والحق أنه لا وجاهة لهذا الافتراض ، لأن المنتظر أن يتمخض الواصل الينا من شعره ـ وهو مختلف الأغراض في الديوان ـ عن غير ما لفتة تشي بما يضطرم به شعوره تجاه حدث يعدّ تتويجاً لجهد استغرقه استغراقاً ، فهو قضية عمره كما يقال ، وكما أشير اليه منذ لحظات .

وعلى كل حال ، ليس هذا الذي فصل تفصيلا في الصفحات السالفات بمغالاة في التقدير ، ساقت الى تصوير حالة ابن زيدون النفسية والجسمية من خلال شعره على هذا الوجه من التخريج ، بل إن ذلك مما أسندته رواية التاريخ

(٨٤) صفة جزيرة الاندلس «الروض المعطار» للحميري ، ص ٣٩ ـ البيان المغرب لابن عذاري ٢٥٣/٣ ـ ابن حيان بواسطة ذخيرة ابن بسام ونقله نفح الطيب ، ج ٢ ابتداء من ص ٧٤٩ ، ط . اوربة .

(٨٥) الروض المعطار ، ط . بروفانسال ص ١٦٤ ـ الادريسي : نزهة المشتاق ، ص ١٨٣ ـ اعمال الاعلام ، الجزء الخاص بالاندلس ص ١٨٤ ، ط . الرباط ـ البيان المغرب ٣٥٣/٢ .

التي جاءت على لسان شيخ مؤرخي الأندلس وشاهد العصر بالذات أبي مروان ابن حيان ، كما نقل عنه ابن بسام قبل صفحات ، وما زالت إفادة شيخ مؤرخي الأندلس ترنّ في الآذان بأن دونة المعتمد بن عباد قد اختص بإدارتها وتدبيرها «ثقاته المختصان به الحظيّان لديه : ابن مرتين، وابن عمار» . ولنذكر بإزاء ذلك أن ابن حيان قد عقب على إفادته بقوله « ولكل دولة رجال » ، وقد جاء بها في معرض استبعاد ابن زيدون من مسرح الأحداث ، ولو بالتدبير والإشارة على عهد المعتمد بن عباد ، وقد عرضه علينا مقصوداً من رجلي الدولة ابن عمار وابن مرتين اللذين استطاعا أن يقطعا حبل ماتّته بالمعتمد ، ويتحكّما في مصيره كما يفهم من كلام ابن حيان الصريح .

وبهذا ننتهي إلى إبعاد ترجيح ما أفصح عنه المؤرخون المحدثون ، ورجحه الأستاذ علي عبدالعظيم من أن أبا الوليد بن زيدون قد كان وراء تلك الجرائر التي قلبت ملهاة الخدعة في فتح قرطبة الى مأساة ، وأوقدت قلم ابن حيان فخصها بتأليف ، وجعل عنوانه (البطشة الكبرى) غيرَ وَجِل ولا هيّاب .

وهكذا نرى — وبيدنا نص ابن حيان الفريد — أن الأشبه باجتراح تلك الجريرة ، والأشكل بتلك الصورة الأسطورية التي احتل بها قرطبة حماتها ، وبتلك المهولات الضاريات التي لا ضرورة اليها ، أن يبحث من ورائها عن شبح الوزير الشاعر أبي بكر بن عمار ، فان قصة هذه البطشة ، لتشبه بكل قسمة فيها تلك المغامرات الأسطورية ، المروية عن أبي بكر بن عمار وزير « شِلْب »، اللاهي ، ووزير « اشبيلية » الطاغي . وهي بكل أوصافها وملابساتها ، تنسجم انسجاماً كاملاً مع الروح الألعبانية ، التي عبر عنها بعض المؤرخين بالبراعات [٨٦] ، وتكاد (البطشة الكبرى) تقول بلسان الحال : إنها من نسج ابن عمار وحبكه ، فهو الذي تؤلف سيرته سلسلة من مثيلاتها : وبها قرع باب الحظ في حياته كلها .

(٨٦) المعجب ، لعبدالواحد المراكشي في حديثه عن ابن عمار ونكبته .

هذا الى أنه بحكم وظيفته واختصاصه ، قد كان مدبر حروب المعتمد ، وقائد جيوشه ، ونجده الوزير الوحيد الذي يقول :

ومن ذا الذي قاد الجياد الى الوغى سواي ؟ ومن أعطى الكثير ولم يُكْدِ ؟

وهو ، بعدُ ، خِدْنُ المعتمد الذي اعتدّه قطعة من نفسه ، فمكنه من زمام أمره ، وانصرف الى لذاته ، وذلك ما يدعو الى إعادة الكرة في الموضوع لنقيم الحجة بالبيان لما نقول . فالى الفصل الثالث والأخير الذي سيجلي لنا الوزير الشاعر « المنفرد بالشورى » أبا بكر بن عمار قائماً بكل قَسَماته وراء (البطشة الكبرى) وأنه صاحب كِبْرِها وعُجَرِها بلا مِراء .

• • •